*

TIGHT BINDING BOOK

*

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو بحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيأة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثاني

في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها
وأسباب تكون تلك الثروة وأسباب انحطاطها وثروة المملكة ومدنها وقراها

(الطبعة الثالثة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢١

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيأة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

الجزء الثاني

في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها
واسباب تكوّن تلك الثروة واسباب انحطاطها وثروة المملكة ومدنها وقراها

(الطبعة الثالثة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢١

*

مقدمة الطبعة الاولى

في مثل هذا اليوم من العام الماضي صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وكان لصدوره تأثيرٌ في عالم الاقلام لاهمية موضوعه وحداثة عهده في هذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ووردت الينا كتب الفضلاء من رجال العلم في مصر وسوريا وأوربا وأميركا وفارس والهند مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة في هذا السبيل وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكناً لقلة المآخذ المساعدة على ذلك فزادنا هذا كلهُ نشاطاً واقداماً على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا في أثناء تأليف هذا الكتاب اننا أعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع أن يجتمع عندنا من مواده ما يزيد على مثل هذا الجزء فلما شرعنا في درس الموضوع والتنقيب عما ينطوي تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامي انكشف لنا من أحوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل أربعة أضعاف ما قدرناه . فاصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخيرة ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا في مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب في ثلاثة اجزاء أخرى في مثل حجمه

[illegible] الجزء الثاني زاد المجال اتساعاً ولم يعد يكفي الباقي [illegible] على ستة

أما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهي ركن من أركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى « ثروة الدولة الاسلامية أي ثروة الحكومة ورجالها والى « ثروة المملكة الاسلامية » أي ثروة البلاد وأهلها . وبحثنا في ثروة الدولة بحثاً تاريخياً فلسفياً فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة من أيام النبي فالخلفاء الراشدين فبني أمية فالعباسيين . وبينا الاسباب التي دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة و نظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية في العصر العباسي فقسمناه الى عصرين « الأول » وهو العصر الزاهر و « الثاني » أو عصر الانحطاط . وفي العصر العباسي الاول نضجت الثروة وبلغت معظمها ففصلنا الكلام فيه تفصيلاً . وصدرناه بتمهيد في تاريخ ذلك العصر وما ساعد على قيام هذه الدولة . ثم عمدنا الى النظر في ثروة الدولة العباسية وقبل الشروع فيه أتينا بفذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في القرن الثالث للهجرة شفعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض . ثم ذكرنا ثروة العباسيين من أيام السفاح والدولة في طفولتها حتى بلغت أشدها في أيام الرشيد والمأمون فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جبايتها في أيام المأمون وبعيده وقابلنا بينها . فكان مقدار ما يبقى في بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم في السنة وهي بقية لم تتفق لدولة من الدول . فعمدنا الى النظر في أسباب تلك الثروة فأفضى ذلك الى النظر في مصادر الجباية ونفقاتها وأسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فأسباب كثـ[illegible]

المملكة الاسلا[illegible]

الخ

قلة النفقة ثلاثة : (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين على الحكومة (٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية في العصر الاول نظرنا في أحوالها في عصر الانحطاط وقدمنا الكلام بفصل في علة ذلك الانحطاط ثم مقدار الجباية في ذلك العصر. وبحثنا في سبب تناقصها فحدا ذلك بنا الى النظر في أسباب قلة الجباية وكثرة النفقات ـ وأسباب قلة الجباية خمسة : (١) ضيق المملكة (٢) تخفيض الخراج المضروب (٣) استئثار العمال بالجباية (٤) انشغال الناس بالفتن عن العمل (٥) تحوّل اكثر البلاد الى ضياع. واسباب كثرة النفقات خمسة أيضاً : (١) اسراف الخلفاء ونسائهم وفيه بحث في ما بلغت اليه ثروة نساء الخلفاء (٢) كثرة أبواب النفقة في الدولة (٣) زيادة الرواتب ـ وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفي الحكومة من العمال والكتاب والوزراء والقضاة ثم أهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند ورواتب أخرى (٤) النفقة على البيعة (٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم ويتفرع من ذلك بحث عن حال الوزراء في عصر الانحطاط وتفشي داء الرشوة فيهم وما يجتمع اليهم من الاموال و بيت مال الحكومة فارغ والخلفاء يشكون الفقر. وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء وأخذ أموالهم بالقوة وبحثنا مثل هذا البحث أيضاً في العمال والكتاب والحجاب وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع

ثم عمدنا الى النظر في القسم الثاني وهو « ثروة المملكة الاسلامية » أي ثروة البلاد وأهلها فتكلمنا اجمالاً عن حالة البلاد في ذلك العصر وعن اختصاص الثروة بالمدن وأسباب انحصارها في الفئة الحاكمة ومن يلتمي

اليهم من أهل الوجاهة والنفوذ وسائر أهل البلاد في فقر مدقع . وختمنا الكلام بوصف أشهر المدن الاسلامية في مصر والشام والعراق والغرب كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها وما بلغت اليه من الثروة والعمران في عهد ذلك التمدن

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء أهمية موضوعه ووعورة مسلكه فعمد ارباب الاقلام الى تقريظه وانتقاده في الجرائد والمجلات فضلاً عن الكتب الخصوصية فرأينا في مجمل ذلك ما نشطنا لكننا رأينا لبعضهم انتقاداً لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق مايعلمه هو من مآخذ هذا الموضوع فرددنا عليه و بينا له ان التبعة في ذلك على قلة ماوصلت اليه يده من تلك المآخذ وأسندنا كل قول من أقوالنا الى مصدر وثيق اجمع المؤرخون على صحته (راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و٣٧٥٨) وقرأنا نحو ذلك الانتقاد في جرائد أخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ في بعض المواضع - والخطأ في تعجله - لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين وقد أوردنا أكثر أسمائهم في مقدمة الجزء الاول فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا أنفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء ان نذيل صفحاته بالمآخذ التي نقلنا عنها تلك الحقائق ولكننا أمسكنا عن ذلك ضناً بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأياً ولا قلنا قولاً الا وسندنا فيه كتابٌ أو عدة كتب فالاشارة الى تلك الكتب في ذيل الصفحات تستغرق جانباً منها - على اننا لو فعلنا ذلك لكفينا أنفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء في الاخذ والرد بلا طائل

وقد توسمنا في مجمل ما قرأنا من التقاريظ والانتقادات رغبة حضرات الكتاب في ذكر المآخذ . وكتب الينا جماعة من أهل الفضل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالماً كبيراً من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه ـ نعني صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني ناظر العلوم والفنون في حيدر اباد دكن فانه من اوسع الناس اطلاعاً على التاريخ الاسلامي وآدابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب الينا كتاباً يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ولكنه انتقد اغفالنا ذكر المآخذ في ذيول الصفحات قال : « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامي بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمني بنوع خاص. ولم اعرضه على احد الا اعجب به غاية الاعجاب وظني ان تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستاني) ولا شك انه يقع موقع القبول في البلاد الاسلامية كلها . ولكنني أنتقد عليكم امراً لا يسعني كتمانه وهو ان دأبكم في التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب في أوله اجمالاً من غير التزام الاستشهاد في كل محل وموضوع ـ وفيه مفاسد كثيرة ـ منها اننا رأينا كثيرين من مستشرقي اوربا يذكرون اموراً مهمة من المسائل العلمية او الاختراعات وينسبونها الى العرب فنغتر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب ثم اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شيء يذكر ولا مأثرة تنقل — لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون في الاستنباط . فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية ومآخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مست الحاجة . ومنها ان كتب التواريخ لها مدارج ومراتب فما لم تذكر اسماء

الكتب بالخصوص لا يتميز جيد الرواية من رديئها ولا اقواها من اضعفها» اه

فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا ان نعود الى رأينا الاول فنذيل صفحاته بالمآخذ التي اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة. واختصرنا في ذلك جهد الطاقة ضناً بالمكان ولا يخفى مايقتضيه هذا العمل من التدقيق والمراجعة . وفي تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية على مقدار ما بذلناه من العناء في تأليفه وخصوصاً لانه اول كتاب في هذا الموضوع كتب على هذا النسق

وليس تاريخ التمدن الاسلامي من الكتب التي يلهو بها العامة للتسلية ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخي اجتماعي يبين أسباب نشوء المدنية واسباب انحطاطها ويتخلل ذلك ابحاث فلسفية في علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض وماينجم عنها من العبرة والموعظة فهو من الكتب التي يقرأها الخاصة اهل الاطلاع - ولم نعمد الى تأليفه الا بعد ان اعددنا اذهان القراء الى هذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات التاريخية الاسلامية منذ عدة اعوام مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه من الحقائق التاريخية في سياق الحكاية الغرامية . فلما تهيأت الاذهان ورأينا في القراء شوقاً الى مطالعة التاريخ الاسلامي عمدنا الى تأليف هذا الكتاب وهو تاريخ الاسلام الحقيقي لان تاريخ الامة لا يقوم بسرد حروبها وفتوحها وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها الاجتماعي ومصيرها - او هو تاريخ تمدنها . ولنا في ما بسطناه من وعورة هذا المسلك عذرٌ على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده

طبع ثانية سنة ١٩١٩ وثالثة سنة ١٩٢١

ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا في الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر في تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تجلي منه للباحثين . اما الظواهر فهي ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيأة الاجتماعية وآدابها . وأما حقيقة التمدن فهي ما ينتج عنه من الخير او الشر من السعادة او الشقاء للمستظلين في ظله او سواهم من بني الانسان . ومن ظواهر التمدن الاسلامي الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيأة الاجتماعية وآدابها وسنحصر بحثنا في هذا الجزء بثروة المملكة الاسلامية دون سواها

والبحث في ثروة المملكة يقتضي النظر في مصادر تلك الثروة وأسبابها واوجهها باعتبار الدول والاعصر والنظر في ثروة كل عصر مع تفرق الثروة في الاهالي او حصرها في فئة منهم او في الحكومة أو في رجالها مع اعتبار ما يلحق ذلك من وصف ثروة المدن والابنية وغيرها

ومعلوم ان المملكة الاسلامية بلغت معظم ثروتها في العصر العباسي . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لاكتفينا بالاشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات وما كان عليه الخلفاء واتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها — ولكننا عوّدنا منذ اخذنا في تأليف هذا الكتاب ان نسند كل حادث الى اسبابه بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى اصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور

والمملكة الاسلامية عند التخصيص هي غير الدولة الاسلامية لان هذه عبارة عن الحكومة ورجالها واما المملكة فهي البلاد وأهلها . فيحسن والحالة هذه ان نقسم الكلام في الثروة المذكورة الى ثروة الدولة الاسلامية وثروة المملكة الاسلامية ونتكلم في كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها

وبناء على ذلك سنجمل الكلام في ثروة الدولة الاسلامية باعتبار العصور فنبدأ بعصر النبي فالخلفاء الراشدين فبني أمية فالعباسيين . ونقسم كل عصر الى ابواب

بعضها للبحث في ثروة الحكومة او بيت المال والبعض الآخر للبحث في ثروة رجال الحكومة وما يستلزمه ذلك من النظر في أسباب تلك الثروة وعلة كثرتها او قلتها وتاريخ الخراج والجزية وغيرها وابواب النفقة وغير ذلك

فثروة الدولة الاسلامية مرت في خمسة أدوار او أعصر وهي (١) عصر النبي (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بني أمية (٤) عصر العباسيين الاول او عصر الزهو العباسي (٥) عصر العباسيين الثاني او عصر الانحطاط . اما الدول الاسلامية الاخرى في مصر والاندلس وغيرها فالكلام في ثروتها يأتي عرضاً بطريق الاستشهاد او التمثيل لان المراد بالتمدن الاسلامي انما هو التمدن العباسي الشهير

ثروة الدولة الاسلامية

(١) عصر النبي من سنة ١ — ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها او ما تختزنه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها فالدولة الاسلامية في عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية لانهم لم يكونوا يختزنون مالاً ولا كان عندهم بيت مال بل كانوا اذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فانها كانت تفرق في اهلها واذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة اليه . وكان النبي يتولى ذلك بنفسه وأكثر الصدقات من الماشية والابل والخيل فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها

فكانت ثروة الدولة في عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من ابل او خيل او ماشية وتمتاز عن اموال سائر الناس بمراعٍ خاصة كانت تحبس فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمى [١] وبميسم كان النبي نفسه يسمها به [٢] وبلغت الاموال في أيام النبي نحو ٤٠٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها [٣] ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم

(١) الماوردي ١٧٦ (٢) البخاري ١٩٠ ج ١ (٣) شرح الموطأ (خط)

(٢) عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ – ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبي . عصر العدل والتقوى كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا . وهو العصر الذي اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع وأخذوا في حشد الاموال باية وسيلة كانت

(بيت المال) توفى النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التي قدمناها ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجيات وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلاً ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر ووردت عليهم الأموال ذهباً وفضة فدهشتهم كثرتها وتنبهوا لها – يقال ان ابا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال فقال له عمر « بما جئت » قال « بخمسمائة ألف درهم » فاستكثره عمر وقال « أتدري ما تقول » قال « نعم مئة ألف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال « أيها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عداً » [١] وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين [٢] باعتبار السابقة والقرابة من النبي ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل « يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي اني لا اعدّ للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا [٣]

فلما كثرت الاموال في أيام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع أذخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة او المزارعة [٤]

---

(١) المقريزي ٩٢ ج ١ (٢) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٥٦ (طبعة ثانية) (٣) ابن الاثير ٢٤٨ ج ٢ والفخري ٧٥ (٤) المقريزي ٢٥٩ ج ٢

لان أرزاقهم وارزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم ـ اراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل لا يمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان في يده من الارض وداره الى أصحابه من أهل قريته تفرّق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدّى من خراجها ويسلمون اليه مالهُ ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين (١)

والغرض الذي كان يرمي اليه عمر من هذه القاعدة ان يبقى أهل الذمة وارضهم مصدراً المال الذي يحتاج اليه المسلمون في أعمال الجهاد ووقفاً لمصالحهم مدى الدهور . أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ولا يمضي بضعة أجيال حتى تصير املاكاً خاصة بهم (٢) وعمر يريد ان يبقيها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لا تباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من اقامة فريضة الجهاد (٣) وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الاموي وكان يحذو ابن الخطاب بكل خطواته فقال « ايما ذمي اسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله وما كان من ارض فانها من فيء الله على المسلمين . وايما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » (٤) فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة أو صناعة أو نحوها

(ثروة الخلفاء وعمالهم) علمت مما تقدم ان الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفى أبو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا ديناراً واحداً سقط من غرارة (٥) لانه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه بل هو انفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه . وذلك أربعون الف درهم غير ما اكتسبه من التجارة لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم . فلما دنا أجله اوصى ان تباع أرضٌ كانت له ويدفع عنها بدلاً مما اخذه

---

(١) ابن عساكر (نسخة كريمر) (٢) كتاب الخراج لابي يوسف ١٤
(٣) ابن عساكر (٤) المقريزي ٧٧ ج ١ (٥) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٢

من مال المسلمين [١] وكان عنده ثوبان اوصى ان يكفن بهما

واخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من ان تذكر . ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد اسسها على امتن دعائم الملك — أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ — يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الاموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب وعمر مع ذلك لا يلتفت اليه ولا يأخذ منه ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى صاحب بيت المال فاستقرضه حتى يفيه اياه من عطائه فيما بعد [٢] ولما طعن وأحس بدنو الاجل قال لابنه « اني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين الفاً فليرد من مال ولدي فان لم يف مالهم فال آل الخطاب » [٣] وزهده في الطعام واللباس مشهور

ويقال نحو ذلك في الامام علي فقد كان مغالياً في الزهد والعدل . ومن اقواله « تزوجت بفاطمة وما لي فراش الا جلد كبش تنام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ومالي خادم غيرها » وجاءه في ايام خلافته مال من اصبهان فقسمه على سبعة اسهم فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة اسهم ودعا امراء الاسباع فاقرع بينهم لينظر ايهم يعطى أولاً . ولم يبن عليٌّ آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وكان يأتي بحبوبه من المدينة في جراب وقيل انه اخرج سيفاً له الى السوق فباعه وقال « لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه » ومناقبه لا تحصى [٤]

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ان عمالهم كان اكثرهم من اهل التقوى وحسن الاعتقاد في الاسلام . فكان عمر اذا اكتسب احد عماله مالاً من تجارة او سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لا يرى في ذلك غبناً — كذلك فعل بسعد بن ابي وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله

(١) ابن الاثير ٢٠٧ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٣ (٣) اليعقوبي ١٨٣ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٢٠٢ ج ٣

على مصر وابي هريرة عامله على البحرين [١] وغيرهم

ولا غرابة في ذلك لان العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الامة فانه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه . على ان الخليفة نفسه لا يولي اعماله الا من يكون على رأيه وخلقه وخصوصاً عمر فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لاقل تهمة — ذكروا انه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد فلما انقضت السنة كتب اليه « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشياً حافياً عكازه في يده واداوته ومزوده وقصعته على ظهره . فلما رآه عمر قال « يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء » فقال « يا أمير المؤمنين أما نهاك الله ان تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدنيا أجرها بقرابها » فقال « وما معك من الدنيا » قال « عكازة أتوكأ عليها وادفع بها عدواً ان لقيته ومزود احمل به طعامي » فقال « ما صنعت بعملك يا عمير » قال « أخذت الابل من اهل الابل والجزية من اهل الذمة ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وابناء السبيل فوالله يا امير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لاتيتك به » فقال له « عد الى عملك » [٢]

ولا بد لنا مع ذلك من ان نقف هنيهة للنظر في امر يفتقر الى تفسير . قلنا ان عمر لم يكن يختزن مالاً ونهى عن اختزانه فلو كانت الاموال التي ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم في ايام النبي وابي بكر لهان عليه أن لا يختزن ولكنه فرض أعطية معينة يتناولونها كل عام . ونعلم ايضاً ان الاموال زادت كثيراً في ايامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح وكلها تؤدي الخراج والجزية فضلاً عما يلحق بيت المال من الغنائم — فما الذي كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطية المذكورة ? يظهر انه كان يفرقه في اهل الحاجة او لعله كان يستبقي بعضه على ان يفرقه ولا يعد ذلك اختزاناً لانه انما منع الاختزان للحرب

﴿ اقتناء المسلمين للاموال ﴾ على ان رأي عمر بعدم اختزان المال ينافي المبدأ الاساسي الذي تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات لان اختزان الاموال من

---

(١) اليعقوبي ١٨١ ج ٢ (٢) المستطرف ٩١ ج ١

ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ولذلك لم تطل مدتهم الا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها فعاد الناس الى فطرتهم وتسابقوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة

وقد باشروا ذلك في أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ — ٣٥ هـ) لانه لم يكن شديداً مثل عمر وكان مع ذلك اموياً فاعتز الامويون به وأرادوا أن يعيدوا لانفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية وكان بنو هاشم قد سلبوهم اياها بعد الاسلام لان النبي منهم[1] فاخذ عثمان يولي الاعمال رجالاً من اقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام الا يأساً من فوزه على المسلمين . وكثرت في ايامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص اهله منها باكثر من سائر الصحابة . كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (اخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢٥٠٠٠٠٠ دينار اعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته[2] وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وابطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من اهله فازدادوا طمعاً في حشد الاموال لانفسهم وخصوصاً معاوية بن ابي سفيان عامله على الشام وهو اكثرهم دهاء وابعدهم مطمعاً فكان في مقدمة الذين ابطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام واقروا الارضين في ايدي اصحابها كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم فلما غلبت الروم وفر البطارقة أو قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فاوقفها المسلمون على بيت المال فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (اي يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً فكتب اليه ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ووصف في كتابه هذه المزارع وان لا مالك لها وليست هي من قرى اهل الذمة ولا الخراج وسأله أن يقطعه اياها[3] . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره الف دينار في السنة[4] وهو

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٧١ (طبعة ثانية)

(٢) اليعقوبي ١٩١ ج ٢ (٣) ابن عساكر (خط) (٤) المقريزي ٩٥ ج ١

كثير بالنظر الى رواتب العمال في تلك الايام . فلما طلب من عثمان ان يقطعه تلك الضياع اجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على فقراء أهل بيته فجرأه ذلك على التمادي في اقتناء الارضين وبيعها في ايام خلافته والاذن للمسلمين في ذلك

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلي وغيرهم وزادت اموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال فوجدوا عند خزنه بعد موته ١٥٠٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها ١٠٠٠٠٠ دينار وخلف خيلاً وابلا [1] والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الاموال واغراه اهله على ذلك وخصوصاً معاوية — ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً

ومن اسباب شيوع الاملاك بين المسلمين ان عثمان اقطع هو وخلفاؤه بعض الارضين مما لم يتعين مالكوه على ان يدفعوا شيئاً لبيت المال بمقابل الايجار أو الضمان كما تقدم . فلما حدثت فتنة الاشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فاخذ كل قوم ما يليهم [2]

على ان المسلمين لم يكونوا راضين عن اعمال معاوية في هذا الشأن لانه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى . وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يغني عن البيان . فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر وكان يرى « ان المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه اكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم »[3] وكان يقوم في الشام ويقول « يامعشر الاغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ومازال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله واوجبوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم وكان معاوية يشكو أمراً من شكايتهم لان أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق وقد سأله معاوية « كيف ترى هذا » فقال أبو ذر « ان كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين وان كنت بنيته

(١) المسعودي ٣٠١ ج ١ (٢) الماوردي ١٨٣ (٣) ابن الاثير ٥٥ ج ٣

من مالك فانك من المسرفين » [1] فعظم ذلك على معاوية فأراد أن يوقعه في ما يوجب محاكمته فبعث اليه بالف دينار أراد ان يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير الى أبي ذر فرقها حالاً مع أنها وصلته ليلاً وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم انه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فاخبره انه انفقه في ساعته. فلم ير معاوية سبيلا الا اتهامه بالفتنة فكتب الى عثمان « انك افسدت الشام على نفسك بابي ذر » فكتب اليه « احمله على قتب بغير وطاء » [2] فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بني امية وخروجهم من الحق . فاخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما نقموه عليه الى مقتله

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة في الخلافة وأرادها معاوية لنفسه رأى بين دعاتها من هم احق بها منه نسباً وسابقة فاحتال اليها بالمال فزدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في انشاء الاحزاب — ولا غرو فان المال قوة تحول الى ما شئته من القوى وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب او سلم او محالفة او معاهدة وما من فتح او حصار الا والمحرك عليه او الداعي اليه « المال » — وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف حتى أفضت الخلافة اليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصف له الا بعد مقتل علي (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون ان معاوية انما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام علي « ان علياً كان يقاتله معاوية بذهبه » [3] وسار بنو أمية على خطوات معاوية في ذلك فجعلوا المال اكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم فجرهم ذلك الى الاستكثار منه باي وسيلة كانت كما سيأتي

فالثروة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ولكن تحريمها لم يبق طويلاً لان بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب او من يكون في مثل مناقبه وتقواه

(١) ابن الفقيه ١٥٦ (٢) اليعقوبي ١٩٩ ج ٢ (٣) المقريزي ٤٣٩ ج ٢

مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال وعجل ذلك فيهم رغبة بني امية في استنصارها . فانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده وظل ابو بكر وعمر مضرب امثال القوم قروناً متطاولة اذا اعوج حاكم او خليفة طلبوا اليه ان يقتدي بهما وخصوصاً عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته في الحق حتى ان اشهر عمال بني امية ظلماً ودهاء ارادوا الاقتداء به في ذلك فتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف – يقال ان زياد بن ابيه اراد ان يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه اسرف وتجاوز الحد ثم أراد الحجاج بن يوسف أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر [١]

(٣) عصر بني أمية من ٤١ — ١٣٢ هـ

تمتاز دولة بني امية عن دولة الراشدين بان السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسي . وتمتاز عن الدولة العباسية بانها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من خلفاء بني امية ومن عمالهم الامور الصعاب حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملوهم معاملة العبيد وكانوا يسموهم « الموالي » ويعدون انفسهم ذوي احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر واذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرشي » قال « وا قوماه » واذا قالوا « عربي » قال « وا بلدتاه » واذا قالوا « مولى » قال « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » . وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعوهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم [٢] وكانوا يسموهم العلوج . وفي كتاب الموالي للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الاشعث أراد أن يفرقهم حتى لا يجتمعوا فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بني عجل فقال الشاعر

وانت من نقش العجلي راحتهُ وفرّ شيخك حتى عاد بالحكم [٣]

(١) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٣) العقد ٧٤ ج ٢

وسنعود الى تفصيل ذلك في الكلام عن نظام الهيأة الاجتماعية في المملكة الاسلامية في جزء آخر من هذا الكتاب وانما أشرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب في دولة بني أمية على غير العرب ولو كانوا مسلمين

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم انهم اعتبروا اهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم — يدل على ذلك قول سعيد ابن العاص عامل العراق « ما السواد الا بستان قريش ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركنا »[1] وقول عمرو بن العاص لصاحب اخنا لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو « انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم »[2]. فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاؤا من اموال الناس وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه عمال زهيد — فعل ذلك في بادئ الرأي ترغيباً لهم في نصرته ثم توالت عليه وعلى من خلفه من بني امية الحروب مع احزاب بني هاشم والخوارج وغيرهم فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها الا بالخراج والجزية من اهل البلاد فاستخدموا من العمال من يثقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلاً عن الحرب. وأشد أولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق. واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة وفيهم عبد الله بن الزبير في مكة والمختار بن ابي عبيد في العراق وغيرهما فوكل ذلك الى الحجاج وامثاله فاستخدموا العنف في تحصيل الاموال بحق وبغير حق[3]

(جور العمال) وكان عمال بني امية يجورون على اصحاب الارضين من اهل الذمة في التحصيل ونحوه لا يهمهم بقي لهم من المحصول شيء ام لا. وكان الخراج يومئذ على المساحة فيؤخذ على الارض مال معين زرعت ام لم تزرع وكان من شروط الخراج ان يستبقى لاصحاب الارضين ما يجبرون به النوائب والجوارح. ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه في اخذ تلك البقية منهم فاجابه « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك وابق

(١) الاغاني ٣٠ ج ١١ (٢) المقريزي ٧٧ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٠ ج ٥ وكتاب الخراج لابي يوسف ٦٢

لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » (١) . والظاهر ان الضغط على اهل القرى واصحاب الارضين حمل بعضهم على الاسلام احتماء به فاصبحوا من الموالي فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فالزمهم الحجاج (٢) الخراج مع انهم تنازلوا عن مغارسهم لاهلهم وغادروا القرى وسكنوا الامصار فراراً من تلك الضرائب فامر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لان المسلمين كانوا الى ذلك الحين لا يقيمون الا في المدن التي بنوها هم . واهل البلاد الاصليون يقيمون في القرى للزرع والحرث فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج عن رأسه وصار ما كان في يده من الارض وداره الى اصحابه يؤدون عنها ما كان يؤدى من الخراج كما تقدم وينزل هو الى الامصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك في أيام الحجاج جماعة كبيرة رغبة التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الامصار « ان من كان له اصل في قرية فليرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » فعل ذلك في ايام ابن الاشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون « يا محمداه يا محمداه » ولا يدرون الى أين يذهبون فاضطروا الى الانضمام للاشعث على الحجاج (٣)

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم فقد فعل مثله أيضاً يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على افريقية (٤) وكذلك فعل الجراح في خراسان (٥) وغيره في ما وراء النهر (٦) وكان أهل سمرقند قد اسلموا على ان ترفع الجزية عنهم فظلوا يأخذونها منهم فعادوا الى دينهم

أما النصارى وغيرهم من اهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم . فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية . ورأى هؤلاء ان اعتناق الاسلام لا ينجيهم من ذلك فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لان الرهبان لا جزية عليهم . فادرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان وفرض على كل راهب ديناراً (٧) وهي أول

---

(١) الماوردي ١٤٣ (٢) ابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٤
(٤) ابن الاثير ٤٨ ج ٥ وابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٢٤ ج ٥
(٦) ابن الاثير ١١١ ج ٥ (٧) المقريزي ٤٩٢ ج ٢

جزية أخذت من الرهبان . وأمثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني امية

ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه في سبيل جمع المال فانهم زادوا الخراج عما كان عليه في أيام الراشدين ـ بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطاً فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص امير مصر أن « زد على كل امرىء من القبط قيراطاً » فكتب اليه « كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ان لا ازيد عليهم » [١] ولعل عمراً لم يطعه في ذلك لان مصر طعمة له . فلما انتقلت الى خلفاء بني امية بعد عمرو زادوا في الخراج ما شاؤا . واشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الاعظم فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً . وحدث نحو ذلك على يد اسامة ابن زيد التنوخي متولي الخراج فانه اوقع في النصارى واخذ اموالهم . وكثر الالتجاء الى الرهبنة في ايامه فأراد أن يمنع ذلك لانه يضر في الخراج والجزية فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم ايدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده . والزم كل نصراني بمنشور يحمله يدل على انه ادى ما عليه وكتب الى العمال بان من وجد من النصارى وليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب [٢]

على ان ذلك لم يكن برضى الخليفة فلما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب الى عامله بمصر ان يجري النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من العهود . فلم يطل العمل بهذا الامر فعاد العمال الى ظلمهم وفي جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد في الخراج واحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصراني وسماً صورة اسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده [٣] . وقس على ذلك امثلة كثيرة من شدة عمال بني امية على أهل الذمة والموالي وغيرهم من غير العرب

ومن امثلة ما اقترفه بنو امية من زيادة الخراج والجزية ان اهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام

(١) البلاذري ٢٢٧ (٢) المقريزي ٤٩٢ ج ٢ (٣) المقريزي ٤٩٣ ج٢

فلما تولى عبد الملك بن مروان استقلّ ذلك فبعث الى عامله فاحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بايديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وطرح أيام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة [1]

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الذمة والموالي ولكنها شملت العرب المسلمين انفسهم وذلك ان محمداً اخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضي الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه « الوظيفة » فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر [2]

وكان عمال بني امية في فارس يخرصون الثمار على اهلها أي يحزرون مقدارها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها [3]

وكان من أساليبهم في الاستكثار من الاموال ضرب الضرائب على الارض الخراب . وكانوا يفرضون على الاهالي هدية في عيد النيروز بلغت في أيام معاوية ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [4] وفرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتب عرضاً [5] وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللاكار بكيل آخر ويكافون اهل الخراج أرزاق العمال واجور المدى وحمولة الطعام وثمن صحف وقراطيس واجور الكيالين ومؤونتهم . واذا أتى احدهم بالدراهم ليؤديها في خراجه يقتطع الجابي منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها [6]

ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الاعمال من عند انفسهم دائماً بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بامر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان وكان ذلك شأنه في تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها [7] وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصاً عبد الملك لانه كان شديد الحاجة الى المال ومناه

---

(١) البلاذري ٧٣ (٢) كتاب الخراج لابي يوسف ٢٤ (٣) طبقات ابن سعيد (عن فان فلوتن) (٤) اليعقوبي ٢٥٩ ج ٢ (٥) الطبري ١٣٦٧ ج ٢ (٦) كتاب الخراج لابي يوسف ٦٢ (٧) اليعقوبي ٢٥٨ ج ٢

الله بالحجاج فلم يترك وسيلة في استخراج المال الا اتخذها . اما لو أراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لهان عليهم ابطالها لان العمال في ايام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم . ولما جار عمال الاهواز في ايامه شكاهم ابو المختار يزيد بن قيس بقصيدة بين فيها أرباحهم من اهل الرساتيق والقرى وسماهم في قصيدته وحرض عمر على مقاسمتهم ما ربحوه الى ان قال :

فقاسمهم اهلي فداؤك انهم سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعوني للشهادة انني اغيب ولكني ارى عجب الدهر

فبعث عمر اليهم فقاسمهم شطر اموالهم حتى اخذ نعلاً وترك نعلاً ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم فاعترض هؤلاء فقال احدهم لعمر « أني لم آل لك شيئاً » فقال له « اخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به » فأخذ منه عشرة آلاف (١)

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انها سنة سنها عمر ثم تدرج الى استصفاء اموال الرعية وهو اول من فعل ذلك (٢)

فالعمدة في حفظ النظام على الرأس فاذا صلح صلحت الاعضاء . فقد رأيت ان خلفاء بني امية طلبوا المال لقيام دولتهم باي وسيلة كانت فامدوا العمال بالسلطة واطمعوهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال لانفسهم ايضاً واقتدى بهم العمال الصغار كالكاتب والجابي ونحوهما فزادت شكوى أصحاب الارضين فاضطر العمال الى اخراج اعمال الجباية من العرب وتسليمها الى الموالي ومنهم الدهاقين اصحاب الضياع في العراق . فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فاجابه « كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا اغرمت عشيرته او طالبته اوغرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وانا أعرف مكانه فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم مع اني جعلتكم امناء عليهم لئلا يظلموا احداً » (٣)

وفي كلام القاضي ابي يوسف في عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان اولئك الصغار يجمعون الاموال بها قال « بلغني انه قد يكون

---

(١) البلاذري ٣٨٥ (٢) ابن الفقيه ١٠٩ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٤

في حاشية العامل او الوالي جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بابرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في اعماله يقتضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه انما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان او من اموال الرعية . ثم أنهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي ... ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة .. وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام » [١]

وكان شأن بني امية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر ابن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقياً منصفاً فاراد ان يرد الامور الى ما كانت عليه في ايام سميه وجده لامه عمر بن الخطاب فاصدر اوامره الى العمال بابطال تلك المظالم وعينها باسمائها مفصلة [٢] وابطل لعن علي على المنابر . وكان اهله قد اقتنوا الضياع واخذوا كثيراً منها من اهل الذمة بغير حق ففتح بابه للناس واعلن « ان من كانت له ظلامة فليأت » فاتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ومنهم من يشتكي اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو ان الحكم على ابنه او اخوته او ابناء عمه [٣] فقال له بعضهم « وكيف تصنع بولدك » فبكى حنواً وقال « اكلهم الى الله » واخذ اموال اعمامه واولادهم وسماها « مظالم » فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو انما قام بالمال فاذا خرجت الضياع والاموال من ايديهم ذهب ضياعاً فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فاتته فقال لها « ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً الى الناس كافة » [٤]

ولما رأى الموالي عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه ما يقاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد ارسل الى عمر بن عبد العزيز في الشام وفداً رجلين من العرب ورجلاً من الموالي فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر « ما انت من الوفد ؟ » قال « بلى » قال « فما يمنعك من الكلام » فقال « يا امير المؤمنين عشرون الفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا

(١) كتاب الخراج ٦١و٦٢ (٢) الطبري ١٣٦٦ج ٣ وابن الاثير ٢٩ ج ٥
(٣) الخميس ٣٥٣ ج٢ (٤) ابن الاثير ٣٠ ج ٥

رزق وصلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان »[١] فقال عمر « احر بمثلك ان يوفد » وكتب الى الجراح « انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية » فرغب الناس في الاسلام وتسارعوا اليه فقيل للجراح « ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان » فكتب الجراح الى عمر بذلك فاجابه « ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً »[٢]

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح وكان حيان قد كتب اليه « أما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار أتممت بها عطاء اهل الديوان فان رأى امير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه عمر « اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف ضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً . فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً — ولعمري لعمر اشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه »[٣]

وقس على ذلك عماله الآخرين فانه عزل من لم يوافقه منهم فاصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لانه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال . وما في بني امية وعمالهم الا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات فقتلوه بالسم ويعدُّه المؤرخون من الخلفاء الراشدين[٤] واذا قالوا « العمرين » أرادوه وعمر بن الخطاب[٥]

فترى مما تقدم ان القواعد الاساسية التي قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شؤونها .ولو اتيح لعمر ابن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بني امية ولكنه جاء في غير أوانه فذهب سعيه هدراً . ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله وبالغ العمال في الاستبداد والعسف وشددوا في استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض اصحاب الارضين الى الالجاء اي

(١) الطبري ١٣٥٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥ (٣) المقريزي ٧٨ ج ١ (٤) الخميس ٣٥٤ ج ٢ (٥) القرماني

ان يلجئوا أراضيهم الى بعض اقارب الخليفة أو العامل تعززاً به من جباة الخراج كما سيأتي

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماساً في الترف وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه سلامة وحبابة وحديثهما مشهور [١] وخلفه اخوه هشام وكان بخيلاً وفي ايامه زيدت الضرائب في مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مثل ابيه في اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ وكان عازماً على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب القاه عند مبايعته [٢] فاصابه من الفشل نحو ما اصاب عمر لان الاحوال غير ملاءمة . وفي ايام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو امية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر واصبحوا لا ينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولا يالون في انتقاء عمالهم وربما ولوا العامل عملاً باشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن . وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فاعجبت هشاماً فاهدى هشاماً قلادة اخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ [٣] وبلغ ثمن الجارية في أيام بني امية ١٠٠٠٠٠٠ درهم وهي الذلفاء [٤] واصبح العمال لا همّ لهم الا حشد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالي ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الاعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء . كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان ابن عبد الملك العراق فقال يزيد في نفسه « ان العراق قد اخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ادخل على الناس الحرب واعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني » [٥] وقس على ذلك رأي غيره ممن يؤثرون الرفق . فلم يرغب في الولايات الا اهل المطامع . وجعل الخلفاء من الجهة الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة امير العراق في اواخر ايام بني امية ٦٠٠٠٠٠ درهم [٦] وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ٨٠ (طبعة ثانية) (٢) ابن الاثير ٣١٧ ج ٥
(٣) ابن الاثير ٧٢ ج ٥ (٤) اعلام الناس ٣٥ (٥) الطبري ١٣٠٦ ج ٢
(٦) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

الاموال لاقسهم لعلمهم ان الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسري امير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم (١) أي نحو مليون دينار . فاصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المـال . وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من أموالهم كما فعلوا بخالد القسري اذ وشى به كاتبه حيان النبطي انه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم . فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله (٢) ويسمون هذا العمل استخراجاً وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية

أما ارتفاع الدولة الاسلامية في أيام بني أمية أي مقدار ما كان يجتمع لهم من الخراج والجزية وغيرهما فقد ضاع تفصيله في جملة ما ضاع من اخبارهم في الفتن . على ان المملكة الاسلامية بلغت في أيامهم اتساعاً عظيماً نحو اتساعها في ايام العباسيين ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر . واما الاطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة . على ان كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر لان قدم الامويين لم تكن راسخة فيها

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال وقد فصلناذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٢١٤ (طبعة ثانية) وخلاصته ان متوسط جباية العراق في ايامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وجباية مصر ٣٠٠٠٠٠٠ دينار (أو ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم) وجباية الشام ١٧٠٠٠٠٠ دينار (او ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الاخرى مما لا نعرف مقداره

وخلاصة ما تقدم ان الاموال كانت تستخرج في أيام بني امية بكثرة ولكنها لا تسمى ثروة لأنها كانت تصرف في الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا علياً والحسين بن علي والمختار بن ابي عبيد وعبد الله بن الزبير وحاربوا الخوارج وغيرهم ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالي فضلاً عما كان ينفقه الخلفاء والامراء في البذخ واللهو والقصف

(١) ابن خلدون ٩٦ ج ٣ (٢) اليعقوبي ٣٨٨ ج ٢ وابن الاثير ١٠٤ ج ٥

(٤) الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً : العصر الاول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهي يمتد من أول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ ﻫ الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ ﻫ وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وأنشأت التمدن الذي نحن في صدده وفيه أدركت ثروة الدولة الاسلامية أعظم ما بلغت اليه في عصر من العصور وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب

والعصر الثاني ويعبرون عنه بعصر التقهقر او الانحطاط يبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ ﻫ وينقضي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد وفيه تقهقر التمدن الاسلامي وقلت الثروة وضعفت الدولة حتى انحلت عراها وانقضت ايامها

العصر العباسي الاول من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ ﻫ

﴿ سبب قيام هذه الدولة ﴾ رأيت في ما تقدم ان العصر الاموي يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسة الدنيوية وان خلفاءها وعمالها انما كان همهم جمع المال . وانه يمتاز عن العصر العباسي بتعصب أهله للعرب واحتقارهم سائر الامم وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وغيرها وفيهم القبط والنبط والروم والسريان والكلدان والفرس والترك والسودان وغيرهم — حتى الذين أسلموا منهم . فاصبحت تلك الامم تئن من معاملتهم وزادها نفوراً ما كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الخراج واصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم [١] وخصوصاً الموالي فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا اراضيهم ومنازلهم واصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو امية يخرجونهم الى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء كما تقدم . وكان مناظرو هذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالي عليها ويجعلون لهم الارزاق . وأول من فعل ذلك المختار بن أبي عبيد سنة ٦٦ ﻫ اذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة . فعظم ذلك على العرب وقالوا « ان المختار قد آذى موالينا

(١) ابن الاثير ١٨٩ ج ٣

فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا » فقال لهم المختار يومئذ « اذا انا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معي بني أمية ٠٠٠ ؟ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم « ان اطعتموني لم تخرجوا لاني اخاف ان تتفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم ٠٠٠ ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ٠ ومواليكم اشد حنقاً عليكم من عدوكم فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم » [١]

وكان ذلك شأن الموالي مع كل من قام يدعو الى خلع بني امية ولذلك كثر الخوارج في أيامهم وقام في نفوس العرب ان الخلافة لا يشترط فيها القرشية [٢] على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد اجيال . اما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من أهل بيت النبي وفيهم العلويون من نسل الامام علي ابن عم النبي والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من اكثر الناس نقمة على بني امية للاسباب التي قدمناها . فاخذوا بيد العباسيين وقائدهم ابو مسلم الخراساني. ولما نهضوا نهض معهم كل المسلمين غير العرب في كل انحاء المملكة الاسلامية فضلاً عن أهل البلاد غير المسلمين . فدارت الدائرة على بني امية وتأيد العباسيون فجعلوا عاصمتهم في العراق بالقرب من نصرائهم

وعرف العباسيون علة سقوط بني امية فتجنبوا الوقوع في مثلها فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس واستبقوا الجند العربي ايضاً من ربيعة ومضر رغبة في المحافظة على العصبية العربية لانها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين لانهم سيقوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزيي بالبستهم من القلانس ونحوها – جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم ٠ واول من اخذ الناس بلبسه المنصور سنة ١٥٣ [٣] فامرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول فقال ابو دلامة :

وكنا نرجي من امام زيادة فزاد الامام المصطفى في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

على ان غضب العرب لم يغير شيئاً من مجاري الامور فاتخذ الخلفاء امهات اولاد

---

(١) ابن الاثير ١١٣ ج ٤ (٢) الاستقصاء ٦٠ ج ١ (٣) الطبري ٣٧١ ج ٣

من الفرس اولدوهن اولاداً تولوا الخلافة وفيهم ميل فطري الى العنصر الفارسي. وازداد هذا العنصر تغلباً في بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية لان في قيامها صلاح بلادهم

﴿ العرب والبيعة ﴾ على ان الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب وفيها الحرمان الكعبة وقبر النبي وفي احترامهما احترام الدين الاسلامي وعليه تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك أنهم كانوا يخافون أهل الحرمين من التشيع لآل علي وهم في حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهم من المنزلة في الخلافة والبيعة وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم [1] فشق ذلك على الفرس وخافوا ان يرجع النفوذ الى العرب فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم أدراج الرياح فسعوا في اغفال بلاد العرب . ولا سبيل الى اغفالها والكعبة فيها وهي حج المسلمين والحج من أركان الاسلام . فحبب بعضهم الى المنصور ان يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس فبنى بناء سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة [2] وقطع الميرة في البحر عن المدينة [3] فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل علي وخلعوا بيعة المنصور وقد أفتى لهم بذلك مالك ابن انس الامام الشهير [4] . وكان بنو امية في الاندلس قد قطعوا دعوة بني العباس بعد ان دعوا لهم مدة قصيرة [5] عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٨٥ (طبعة ثانية) . واستقل عبد الرحمن بالاندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور وبذل قصارى همه في قتاله ولم يستطع ذلك الا بعد العناء الشديد

فكان ما قاساه المنصور من عواقب اهماله الحرمين عبرة لخلفائه فلما تولى ابنه المهدي اكرم اهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرق هناك مالاً عظيماً جاء به معه من العراق مقداره ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وجاءه وهو في المدينة ٣٠٠٠٠٠ دينار من مصر و ٢٠٠٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها وفرق ١٥٠٠٠٠ ثوب

---

(١) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ (٢) الطبري ١٩٧ ج ٣ (٣) ابن الاثير ٢٦١ ج ٥ (٤) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ (٥) ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ و ٤٥ ج ٦ وابن خلدون ٢٨٠ ج ٣

ووسع المسجد واتخذ حرساً من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الارضين [١] وامر بحفر نهر الصلة بواسط واحيا ما عليه من الارضين وجعل غلته لصلات اهل الحرمين والنفقات هناك [٢] واصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنّة في بني العباس في اثناء حجهم او عند طلب البيعة لاولادهم فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابناه الامين والمأمون فلما وصل المدينة اعطى فيهـا ثلاثة اعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك في اهل مكة وبلغ ما فرقه ١٠٥٠٠٠٠ دينار وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للامين وآخر للمأمون ووضع الـكتابين في الـكعبة [٣] واصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور والخلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت اقدامهم في الملك

على انهم كانوا من الجهة الاخرى لا يستغنون عن الفرس وهم وزراؤهم ومشيروهم . فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الامين والمأمون واستنصر المأمون جند خراسان وهم اخواله [٤] لان امه فارسية . والامين امه عربية هاشمية [٥] وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على أزمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وارادوا البيعة لسواه واخراج الامر من يده [٦] فازداد كرهاً لهم . ورذلهم فعوتب في ذلك مرة وهو في الشام فقال له رجل « يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » فقال له « اكثرت عليَّ والله ما انزلت قيساً من ظهور خيلها الا وأنا أرى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد وأما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتني قط وأما قضاعة فسادلتها تنتظر السفياني حتى تكون من اشياعه واما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مضر » [٧]

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب احتقاراً في عيون أهل الدولة وتقاصرت ايديهم عن اعمالهـا حتى في مصر فان آخر عربي تولاها عنبسة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هـ [٨] وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد

---

(١) الطبري ٤٨٣ ج ٣ (٢) قدامة ٢٤٢ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٦
(٤) ابن الاثير ٩٠و٩٢ ج ٦ (٥) الطبري ٩٣٧ج٣ (٦) ابن الاثير ١٢٦ج٦
(٧) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٨) المقريزي ٤٥٥ ج ٢

العرب جميعاً وكان قد بنى سامرّا بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ منى وعرفات غرّ به امراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية ان يفارقوه [١] فاصبح لفظ « عربي » مرادفاً لاحقر الاوصاف عندهم . ومن اقوالهم « العربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » [٢] وقولهم « لا يفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبي ينصره الله به » [٣] واصبح الامراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال وقلت العناية بالعرب واحزابهم

وكان العرب من الجهة الاخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ويطعنون بمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة فلما جاءه نعي المعتصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد [٤]

وخلاصة ما تقدم ان الجامعة الاسلامية كانت في عصر الراشدين عربيّة وكان غرضهم الاول نشر الاسلام في الارض يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاها بنو امية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم الى المال وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الامهات . ثم أصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى

---

(١) المقدسي ١٢٢ (٢) ابن الاثير ٢١١ ج ٦ (٣) الطبري ١٥٨٨ ج٣
(٤) الجزء الاول ١٦١ (طبعة ثانية)

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسي الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى في بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق اذ قد يكون الدخل كثيراً والنفقة اكثر منه وتقع الدولة تحت العجز . فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية في العصر الاول فاحشة — وان كنا لم نقف على ميزانيتها في عهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه بارتفاع الدولة لضياع حساباتها في الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين [1] وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني أمية في عام الجماجم [2] — ولكننا نعلم مقدار الثروة في أيامهم مما كانوا يختزنونه من المال في أثناء حكمهم

﴿ الثروة في أوائل الدولة ﴾ فالخليفة الاول أبو العباس السفاح لم يحكم الا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ — ١٣٦) قضاها في الحروب ولم يجمع مالاً . ولما مات لم يجدوا في بيته الا تسع جبات وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز [3] . وأما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ — ١٥٨) وكان رجلاً حازماً كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه — لا عن بخل ولكنه كان يخاف الفتن . فلما مات خلف في بيت ماله ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم و ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار [4] وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً كان مجموع ماخلفه المنصور ٨١٠٠٠٠٠٠٠ درهم (والدرهم نحو فرنك) . فلما دنا أجله أوصى ابنه المهدي قائلاً « قد جمعت لك في هذه المدينة من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك

(١) قدامة ٢٣٦ (٢) الماوردي ١٨٣ (٣) الطبري ٨٨ ج ٣
(٤) المسعودي ١٧٧ ج ٢

لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً » [١] ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على ان سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء وهو بالحقيقة مؤيد دولة بني العباس حارب في سبيل سلامتها حروباً كثيرة انفق فيها اموالاً طائلة منها ٦٣٠٠٠٠٠٠ درهم أنفقها في حرب الخوارج بافريقية سنة ١٥٤ هـ فاعتبر ما انفقه في الحروب الاخرى وهي كثيرة ـ فضلاً عما كان يبذله لاهله فانه بذل لجماعة منهم في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم [٢] وأنفق على بناء بغداد وحدها ٤٨٣٣٠٠٠ درهم [٣] ناهيك عما كان ينفقه على اصلاح الري وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال في أيام المنصور بمليار درهم (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) على الاقل . فاذا قسمت ذلك على سني حكمه (٢٢) لحق السنة ٤٥٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الاموال التي كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج أموالهم. لانه كان اذا عزل عاملاً أخذ ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » وكتب على كل مال اسم صاحبه . ولما أحس بدنو الاجل أوصى ابنه المهدي في ذلك قائلاً « قد هيأت لك شيئاً فاذا أنا مت فادع من أخذت ماله فاردده عليه فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » [٤] ففعل المهدي ذلك لما تولى. وقد يتبادر الى الذهن ان المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بني امية بعد قهرهم وهي كثيرة ولكن تلك الاموال ظلت منفردة في خزانة خاصة يسمونها « مال أهل بيت اللعنة » [٥]

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد فقد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ونيفاً [٦] ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه الرشيد وما بذله وأسرف فيه وكرمه مشهور . وقد يخطر في البال ان هذا المال تجمع من أيام المنصور فالمهدي فالهادي فالرشيد ولم يجتمع كله في أيام الرشيد . والواقع ان المهدي أنفق كل ما خلفه المنصور وكل ما جباه في اثناء خلافته (من سنة ١٥٨ — ١٦٩) [٧] لانه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادي الا سنة وبعض السنة ويروى من فرط سخائه انه اعطى عبد الله بن مالك اربعمائة

(١) الطبري ٤٤٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) المقدسي ١٢١ وسير الملوك ٥٤ (٤) الطبري ٤١٥ ج ٣ (٥) ابن الاثير ٤٠ ج ٦
(٦) الطبري ٧٦٤ ج ٣ وابن الاثير ٨٥ ج ٦ (٧) المسعودي ١٧٧ ج ٢

بغل موقرة دراهم وغيرها فلا يعقل ان يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد في بيت المال أنما جمع في أيامه واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيراً عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع في السخاء . فقد كان الرشيد كريماً حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة [١] وكان المنصور متهماً بالبخل [٢] ناهيك بما كان من أمر البرامكة في أيام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة وتحاربا وكان الامين في بغداد وقد أتته امه زبيدة بخزائن أبيه [٣] والمأمون في خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات انفق الامين في اثنائها كل ما كان في بيت المال مع ما انفقه في خاصته . لانه انقطع في اثناء خلافته الى اللهو والخمر وبذل الاموال في طلب الملهين وضمهم اليه واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقسم الاموال والجواهر في خواصه من الخصيان والنساء [٤]

فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوثق الامر في المشرق والمغرب للمأمون وزاد نفوذ الخراسانيين في أيامه لانهم هم الذين أعادوا الملك اليه واستتبت السكينة في المملكة العباسية واشتغل المأمون في نقل العلوم الى العربية وسنأتي على تفصيل ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب

أما الثروة في أيام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وابي جده المنصور ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه في بيت المال عند وفاته ولعل خبر ذلك ضاع في جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخي تلك الايام في هذه الابحاث

على ان اذخار المال اصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين في كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠ — ٣٥٠) جمع في بيت ماله الى سنة ٣٤٠ هـ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار [٥] وكانت جباية الاندلس في ايامه ٥٤٨٠٠٠٠ دينار ومن السوق

(١) الطبري ١٣٣ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٢ ج ٦ (٣) ابو الفداء ٢٠ ج ٢ (٤) ابو الفداء ٢٢ ج ٢ (٥) ابن حوقل ٧٧

والمستخلص ٠٠٠ ٧٦٥ دينار الجملة ٠٠٠ ٢٤٥ ٦ دينار ما عدا اخماس الغنائم فانها كانت كثيره [١] وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط [٢] وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ دينار ولم يذكر ذلك جزافاً ولا خامر كلامه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٠٠٠ ٥٠٠ قنطار [٣] وهو قول بعيد لا ندري كيف تطرق الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده ان ابن حوقل وهو من معاصري تلك الدولة قدّر ما اجتمع في بيت مال الحكم بن الناصر بعد موت ابيه من خدمه والمصادرين وغيرهم فلم يزد على ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول في ذلك العصر [٤] وكانت بغداد يومئذ في عصر الانحطاط وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضاً

أما في أيام المأمون فالمال الذي كان يجتمع من صوافي الجباية في بيت المال كل عام لم يجتمع في دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية في مقدمة ابن خلدون نقلاً عن « جراب الدولة » [٥] وهي أقدم جريدة او قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية . تليها جريدة اخرى نقلها قدامة بن جعفر وأخرى رواها ابن خرداذبه وكلها لا تجاوز اواسط القرن الثالث للهجرة وسنذكر كلاً منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجباية ان نأتي على فذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في ايام المأمون لتتضح نسبة اعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية

جغرافية مملكة الاسلام

في عصر المأمون

(حدودها) يحدها من الشرق أرض الهند وبعض الصين وبحر فارس ومن الغرب مملكة الروم ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا

(١) نفح الطيب ١٧٩ ج ١ (٢) ابن خلكان ٣٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١١٥ ج ١ (٤) ابن حوقل ٧٧ (٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان في آسيا وجبال البيرينيه في أوربا . وفي خارطة هذه الايام بلاد سيبيرياوبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس وما يلي مصر من بلاد النوبة وقد بينا مساحتها وعدد سكانها في الجزء الاول صفحة ٩٧ (طبعة ثانية)

وتقسم هذه المملكة الى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف الدول والازمنة وسنبين ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلاً عن جغرافيي العرب في تلك الايام وخصوصاً الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه . فهي تقسم الى سبعة وعشرين أقليماً منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق وهي :

《 اقاليم المغرب 》

ديار العرب	الشام
بحر فارس	بحر الروم
ديار المغرب	الجزيرة
مصر	

《 اقاليم المشرق 》

العراق	الجبال
خوزستان (الاهواز)	الديلم
فارس	طبرستان
كرمان	جرجان
مكران	قومس
طوران	مفازة خراسان
السند	سجستان
ارمينية	خراسان
اذربيجان	ما وراء النهر
بلاد الران	خوارزم

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

《 ديار العرب 》 وهي جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبادان ـــ

وهو مصب ماء دجلة في البحر - فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي الى سواحل اليمن الى جدة ثم يمتد الى مدين حتى ينتهي الى ايلة . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحر الاحمر . ويحدها من الغرب الشمالي براً بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنتنة فالشراة فالبلقاء فاذرعات وسلمية فالخناصرة الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة واليمامة ومخاليفها . ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين . وبادية العراق . وبادية الجزيرة . وبادية الشام . واليمن المشتملة على تهامة . ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن

﴿ بحر فارس ﴾ ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق الى ايلة [1] فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه في هذا المقام

﴿ ديار المغرب ﴾ يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر غرباً ويدخل في ذلك (١) برقة (٢) افريقية وهي تونس (٣) تاهرت في الجزائر (٤) طنجة والسوس وزويلة في مراكش

اما برقة فهي مدينة وسط واقعة في مستوٍ من الارض خصبة يطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر وبينها وبين افريقية مدينة طرابلس الغرب وهي من عمل افريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهي عاصمة افريقية واكبر مدينة فيها واقعة في البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدنها أيضاً سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء

ويجعلون الاندلس جزءاً من بلاد المغرب لأنها كانت تابعة لها عند فتحها والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة . ومن اشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقصطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة

(١) الاصطخري ٢٨

وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك

((مصر)) وحدود مصر في تلك الايام مثل حدودها اليوم تقريباً ويلحقون بها البجة والنوبة الى حدود البحر الاحمر فالعقبة

((الشام)) ويراد بها سوريا على العموم وتقسم الى سبعة اقسام (١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق (٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور

فجند فلسطين أول اجناد الشام غرباً يحده من جهة مصر رفح ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنة وغور بيسان ونابلس وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها في الكبر بيت المقدس

وجند الاردن قصبته مدينة طبرية

واما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق وهي أعظم مدن الشام على الاطلاق وهي معروفة

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهي مشهورة ويتبعها انطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين

وجند قنسرين قصبته حلب وهي مشهورة الى اليوم وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها مدينة قنسرين وهي صغيرة ومعرة النعمان

وأما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبتها انطاكية وهي تلي دمشق بالنزاهة . وكانت عاصمة الشام على عهد الروم وكان عليها سور ضخم للغاية قيل ان دوره للراكب يومين [1] ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج في البرية

اما الثغور فهي ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس في اسيا الصغرى ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس . وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم . والمراد بالثغور

(١) الاصطخري ٦٢

عندهم المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ولذلك كان عندهم ثغور شامية أي الحدود مما يلي الشام وحدود جزرية اي الحدود مما يلي الجزيرة

(بحر الروم) ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له في غرضنا الآن

(الجزيرة) بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين يسمى القسم الشمالي منها الجزيرة والجنوبي العراق والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار او هيت على الفرات . ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين في بعض المواضع . يحدها من الشمال ميافرقين وما يليها غرباً الى الفرات قرب ملطية ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ويحدها من الغرب الجنوبي بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال واذربيجان

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق . من أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة ليس في الجزيرة بلد فيها نخل مثلها . وتصيبين وكانت أنزه بلد في الجزيرة . ودارا وهي صغيرة . ورأس عين مدينة مستوية الارض في دار مضر وآمد في اعالي دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة ايضاً ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفي اواسطها ايضاً حران وهي مدينة الصابئين . والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان . وسروج مدينة خصبة كثيرة الاعناب

وفي الجزيرة مفاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر تقيم ربيعة في الشمال الشرقي ومضر في الجنوب الغربي وقد كانوا هناك قبل الاسلام . وهم أهل خيل وغنم وابل على أنهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة . وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان اكثر اهلها نصارى

(العراق) هو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره طوله من تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس في الجنوب وعرضه من قادسية الكوفة في الغرب الى حلوان في الشرق . ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقاً الى شهرزور ثم جنوباً شرقياً الى حلوان فالسيروان والصيمرة فحدود السوس الى عبادان ثم ينعطف الى البصرة ومنها صعداً نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائحها الى الكوفة ثم على الفرات الى الانبار ومن

الانبار شمالاً الى تكريت . ويسمي ما بين دجلة والفرات السواد . هذه حدود العراق في ابان التمدن الاسلامي وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً لان مجاري الانهر تغيرت وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر

واشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته وعاصمة المملكة الاسلامية في ابان مجدها بناها المنصور . والبصرة وهي مدينة عربية بناها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب وللبصرة بطائح سيأتي تاريخها في موضع آخر . وواسط مدينة عربية أيضاً بناها الحجاج في وسط السواد . والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب. ومن مدن العراق النهروان شرقي دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن . وحلوان في آخر حدود العراق شرقاً وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة

(خوزستان) هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ومن الشرق فارس وأصبهان ومن الغرب العراق ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينة الاهواز واليها تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز . وتقسم الى كور أولها كورة الاهواز . ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم . وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها

(بلاد فارس) وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق ويحدها شمالاً اصفهان وبادية خراسان ومن الجنوب والغرب بحر فارس . وتقسم بلاد فارس الى خمس كور اكبرها كورة اصطخر قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبتها جور وفيها أيضاً مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس وبها دواوينها ودار الامارة . ثم كورة دار ابجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ثم كورة سابور وهي اصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون . ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الاكراد يزيدون على مئة حي يتعيشون بالمرعى والحرث في بقاع يقال لها رموم . ويقدرون تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠ ٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشتى والمصيف على مذاهب العرب . وقد يكون في البيت الواحد من الارباب والاجراء والرعاء نحو عشرة رجال فاذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الاكراد ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ رجل وباعتبار ما يلحقهم من النساء والاولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين

(كرمان) هي اكبر من فارس واقعة بين فارس في الغرب ومكران وسجستان في الشرق ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس وأشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز

(مكران) هي شرقي كرمان والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس وهي اكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك ورسك

(طوران) هي أصغر من فارس واقعة بين مكران في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب وأشهر بلادها محالي وكيزكانان وقصدار

(السند) والسند آخر حدود مملكة الاسلام في الشرق واشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهنود برهاناباذ ومنها الديبل على شاطىء البحر والملتان وغيرها . أما المنصورة فانها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة وأهلها مسلمون . ويطلق الاصطخري على مكران وطوران والسند اسم السند

(ارمينية) هي في أعالي مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق اذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى) ومن الشمال جبال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها دبيل وفيها دارالامارةوالنصارى بها كثيرون ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميافارقين ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا

(اذربيجان) هي شرقي الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وارمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال. عاصمتها مدينة اردبيل وفيها العسكر ودار الامارة طولها ميلان في ميلين ويلي اردبيل بالكبر المراغة وكانت قبلا دار الامارة وتليها ارمية على شاطىء بحيرة الشراة . ومن مدنها سلماس ومرند وشيز

(بلاد الران) هي شمالي اذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب ارمينية ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب اذربيجان اكبر مدنها مدينة برذعة ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها

(الجبال) يراد بالجبال جبال فارس وهي تقسم الى كور اشهرها ماه الكوفة وهي الدينور وماه البصرة وتسمى نهاوند. ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان وفارس ومن الغرب العراق والجزيرة ومن الشمال اذربيجان والديلم والري وقزوين ومن الجنوب خوزستان والعراق . وهي تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همذان والدينور وماسبذان واصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان . مساحة همذان فرسخ في فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد . والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها . واصبهان مدينتان بينهما ميلان . ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين . وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل على العراق . وشهرزور قريبة من العراق . وقزوين في أعالي فارس وهي ثغر بلاد الديلم . وقم مدينة عليها سور وهي خصبة . وقاشان مدينة صغيرة

(الديلم) هي جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدها من الجنوب قزوين وبعض اذربيجان ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب اذربيجان . وأهل الديلم صنفان سكان الجبال وسكان السهول ومن توابعها الري وأبهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان

(طبرستان) وهي تلي الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر أيضاً يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم . أكبر مدنها آمل وهي مركز الولاية وسارية وهي بلاد كثيرة المياه ودماوند (او دنباوند)

(جرجان) هي شرقي طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر . اكبر مدنها مدينة جرجان وهي اكبر من آمل . ثم استراباد في الجنوب ودهستان على شاطىء البحر

(قومس) هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال . وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبتها مدينة الدامغان

(مفازة خراسان) هي بادية واقعة في أواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال والري وهي أقل من بادية العرب سكاناً . وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملي فارس وكرمان وهي وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها

(سجستان) هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند . ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . اكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها

(خراسان) هي من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز في تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس . وتقسم خراسان الى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وباذغيس وكنج رستاق ومرووروذ وجوزجان وطخارستان وزم وآمل

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهي أعظم مدنها جميعاً وتسمى ايضاً أبرشهر واقعة في أرض سهلة ابنيتها من طين سعتها فرسخ في فرسخ . ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهي قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم

(ما وراء النهر) هي آخر بلاد الاسلام شمالاً شرقياً يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من أخصب أقاليم الاسلام وانزهها واكثرها خيراً . وأشهر نواحيها بخارا وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش وأشروسنة وخوجند.

(خوارزم) ويعدها الاصطخري تابعة لما وراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحدق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب . قصبته مدينة خوارزم

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالي عصر المأمون ونسبة اقاليمها بعضها الى بعض تمهيداً لما سنذكره من جباية المملكة العباسية وهي تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس ولم يكن كل اقليم منها قائماً بذاته يؤدي خراجه باسمه فان بعض هذه الاقاليم كان داخلاً في عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف الاعصر فربما ورد في قائمة الجباية ذكر خراج أقليم ويكون المراد خراج اقليمين

أو اكثر مما دخل تحت سيطرة عامله . اذ كثيراً ما كان الخلفاء يولون العامل عدة أقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها

وقبل الشروع في ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة لا بد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم أو الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا في كلامنا عن ولاية الاعمال في الجزء الاول انها كانت في بادىء الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منه بالتملك . وكان العمال في عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم وواجباتهم مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج وظلت أعمال الحكومة في داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة في البلاد موظفين من أهلها الاصليين فاذا اجتمع الخراج والجزية انفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه الجباية من نفقات الجباة وغيرها ودفعوا الباقي الى الحاكم المسلم وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه اصلاح الري من اقامة الجسور والسدود ويرسل الباقي الى بيت المال في عاصمة المملكة

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية في زمن الراشدين ولما أفضى الامر الى بني أمية واضطر معاوية الى اكتساب الاحزاب زاد في نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم فازدادوا استقلالاً في أعمالهم. ثم دعت الاحوال الى تمكن المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم في ايام عبد الملك ومن جاء بعده — الا جباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين القبط في مصر والدهاقين في العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافي الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية . واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقي (١)

---

(١) المقريزي ٧٧ ج ١

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . ويهمنا في هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر ان العمال زادوا استقلالاً من هذا القبيل عما كانوا عليه في أيام بني امية حتى آل الامر أخيراً الى تضمين الخراج اي تقبيله . وهي أن يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة الى بيت المال في بغداد وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة الا بالمال المضروب . ويكون ذلك في امارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على افريقية وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠٠٠٠ دينار معونة له فلما تولاه ابن الاغلب تنازل عن هذا المال وبذل ان يحمل كل سنة ٤٠٠٠٠ دينار [1] وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانوناً قائماً فوجه عولى له فوزع خراج الارض باربعة وعشرين الف دينار [2] وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدراً معيناً سيأتي ذكره . وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما تقبله عمران ابن موسى من السند [3] ثم صار التوظيف المذكور ضماناً وتكاثر حتى آل الى استقلال الامراء بولاياتهم

وجملة القول ان المال الذي كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلاني أنما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد اداء اعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الري وسائر الكلف [4] او بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة أي مجموع صافي الدخل لا ينفق منه الا على موظفي الدواوين ورجال الدولة في بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله مما سيأتي تفصيله . وقد صرح ابن خلدون في مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية في أيام المأمون بقوله « ما يحمل الى بيت المال ببغداد في أيام المأمون من جميع النواحي نقلته عن جراب الدولة » [5] فبالقياس على ما تقدم تعتبر كل ما يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انه صافي اموال الجباية

---

(١) ابن الاثير ٦٣ ج ٦ (٢) اليعقوبي (كتاب البلدان) ١٣٣
(٣) ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ (٤) المقريزي ٩٧ ج ١
(٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

جباية الدولة العباسية

في العصر الاول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية في أيام المأمون باعتبار ما يرد من كل عمل في السنة . والتوفق الى ذلك نادر في تاريخ الاسلام لان القوم قلما كانوا يدونون غير حوادث الحرب والفتح والقتل . أما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضاً وهي :

(١) قائمة ابن خلدون : هي اقدمها كلها وقد اوردها ابن خلدون في مقدمته في عرض كلامه عن « ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها » وقال انه نقلها عن جراب الدولة وفيها مقدار الخراج الذي كان يرد على بيت المال في بغداد في أيام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالي الاعوام . وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون في مصر والشام فرأينا خطأ في اسماء بعض البلاد الواردة في تلك القائمة نظنه وقع من النساخ لتشابه في اشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمة المذكورة . لان الخطأ اللفظي المشار اليه يجر الى الخطأ المعنوي لوقوعه في اسماء البلاد أو الاقاليم التي حمل الخراج منها وهاك اصلاحها :

١ كنكر [١] : هي لفظة لا معنى لها في هذا المقام وصوابها « كسكر » وهو أقليم من أقاليم السواد

٢ طبرستان والروبان ونهاوند [٢] : فالروبان بالباء صوابها « الرويان » بالياء وهي من أقاليم الديلم وقد ذكرناها في محلها . ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال كما تقدم . ونظراً لبعدها من طبرستان والرويان فالغالب أن يكون المراد بها بلداً آخر قريباً من هناك نظنها « دماوند » وهي من كور طبرستان

٣ ما بين الكوفة والبصرة [٣] : لم نر في سائر القوائم ولا في غيرها من

(١) في السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠ (٢) في السطر ٢١ من الصفحة المذكورة (٣) في السطر ٢٦ من تلك الصفحة

التقاويم كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الالماني ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة دخلت في القوائم الاخرى باسم آخر [١] . والصحيح على ما نرى ان النساخ اخطأوا في قراءتهم « مابين » وصوابها « ماها » أو « ماهين » مثنى « ماه » فيكون المراد « ماها البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال قصبة الاولى نهاوند وقصبة الثانية الدينور كما تقدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية

٤ ماسبذان والدينار [٢] : ماسبذان من كور الجبال تقدم ذكرها وأما « الدينار » فلا مسمى لها في بلاد الاسلام . وقد يتبادر الى الذهن انها تحريف « الدينور » قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وقفنا على اسم الماهين معاً في هذه القائمة فهي على الغالب مبدلة من « الريان » وهي كورة بقرب كسكر في العراق

وهناك غلط نسخي في تعيين مقدار الخراج في بعض الاقاليم صوابه ظاهر مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم والعادة ان لا يدونوا في الديوان آحاد الدراهم [٣] فالغالب ان يكون صوابها وثمانمائة الف درهم . وكذلك قوله عن جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم والصواب ٢٥ الف الف درهم لأنهما نحو ذلك في القائمتين الأخريين . وكقوله في طبعة بولاق عن خراج قومس « الف الف مرتين وخمسمئة الف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة الف فيكون خراجها ١٥٠٠٠٠٠ درهم و١٠٠٠ من نقر الفضة » . وقوله عن العسل الوارد من الموصل انه ٢٠٠٠٠٠٠ رطل والاقرب الى الصواب ان يكون ٢٠٠٠٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر فقد ورد هناك انه « الف الف الخ » والصواب على ما نرى « الفا الف الخ » بالقياس على جبايتها في ذلك العصر . والخطأ انما وقع بالنسخ لتشابه اللفظين خطاً

أما زمن هذه القائمة فقد عينه ابن خلدون صريحاً فقال انه في أيام المأمون ولكنه لم يعين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ ـ ٢١٨ وحساب

---

(١) Cult. gesch. des Orients I. 356 (٢) في السطر ٢٧ من تلك الصفحة (٣) الطبري ١٤٦٨ ج ٣

بيت المال في بغداد احترق في الفتنة بين الامين والمأمون . ثم لم يدون الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ [١]. فالقائمة المذكورة كتبت في ما بين ٢٠٤ و٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١ و٢١٢ هـ فالارجح أنها كتبت بين ٢٠٤ و٢١٠ هـ

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقاداً على تاريخ قائمة ابن خلدون خلاصته أنهـا كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين بحيث تتصل بعصر المهدي أو الهادي أي بين سنة ١٥٨ و١٧٠ هـ ومن أدلته على ذلك « انه ورد فيها ذكر خراج السند وافريقية وكانتا في أيام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » . والبارون فون كريمر لا يستخف برأيه في تاريخ الاسلام وتمدنهم وآدابهم لانه من أهل التحقيق والبحث ومن أكثر الالمان تمحيصاً للحقائق. ولكننا نراه واهماً في حكمه على هذه القائمة للاسباب الآتية :

أولا : ان استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية وقطع المال عنها . نعم ان افريقية استقل بها الاغالبة وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ – ٢٩٦ هـ ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالاً معيناً كما كان يفعل معظم الامراء المستقلين في مصر وخراسان وغيرها . فانهم كانوا يخطبون للخليفة ببغداد ويعتبرون أنهم تابعون له دينياً فقط — كذلك كان شأن الدولة الطاهرية في خراسان والطولونية في مصر [٢] وكان بعضهم يقدم المال باسم الهدية والبعض الآخر باسم الخراج أو الضمان أو غيرها . وزد على ذلك أن افريقية لم تكن تحمل مالاً الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ أي بعد أن تولاها ابراهيم بن الاغلب وهو الذي فرض على نفسه ٤٠٠٠٠ دينار . فلا يبعد ان يستمر الاغالبة على دفع مثل هذا المال الى أيام المأمون . لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية من مملكتهم كل أيام الاغالبة وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الاغالبة تحت هؤلاء الولاة [٣] ويقال نحو ذلك في السند بل نرى في هذه شاهداً أقرب على صحة رواية ابن خلدون فان المأمون نفسه استعمل على السند سنة ٢١٦ هـ عاملاً اسمه عمران بن موسى العتكي [٤] على ان يحمل

(١) قدامة ٢٣٦ (٢) المقريزي ٣٢١ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٥ ج ٧
(٤) ابن الاثير ١٧١ ج ٦

اليه منها مليون درهم بعد كل نفقة [١] ويدل ذلك على سيادته عليها وان كان المال المذكور أقل كثيراً مما ذكره ابن خلدون اذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الازمنة . أما عدم ورود هذين البلدين في قائمتي قدامة وابن خرداذبه فقد يكون سببه عارضاً اما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون أو لاسباب أخرى راجعة الى دخول بعض الاقاليم في بعض أو غير ذلك كما سيتضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب أقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ أو الوهم وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص . وقد قال صريحاً ان هذه الجباية وردت على بيت المال في أيام المأمون

ثانياً : ان ابن خلدون استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج كان يرجع اليها في تحقيق ما يكتبه في هذا الشأن ونحوه [٢]

ثالثاً : ان الديوان احترق في أيام الامين وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ وأما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع

فبناء على ذلك يترجح عندنا ان يكون الحق في جانب ابن خلدون وأن يكون البارون فون كريمر واهماً في اعتراضه وفوق كل ذي علم عليم

(٢) قائمة قدامة : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه المسمى « كتاب الخراج » ولم يصل الينا منه الا نتف طبعت في لايدن بعناية دي كويه المستشرق الهولندي الشهير . توفي قدامة المذكور سنة ٣٣٧ هـ وكان أبوه نصرانياً وأسلم في أيام المكتفي (من ٢٨٩ ــ ٢٩٥ هـ) وتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة العباسية والف كتباً كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر انه كتبه نحو سنة ٣١٦ هـ نقلاً عن أوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب ان ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ

(٣) قائمة ابن خرداذبه : هو عبد الله بن خرداذبه ذكر صاحب الفهرست انه كان يتولى البريد في بلاد الجبال . ويظهر انه كتب وهو في هذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة ويظن دي كويه ناشر هذا الكتاب ان

---

(١) ابن خرداذبه ٥٧ (٢) ابن خلدون ٣٢٩ ج ١

ابن خرداذبه كتبه سنة ٢٣٢ ثم أضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالي سنة ٢٥٠ هـ .

هذه هي القوائم الثلاث وفيها جباية الدولة العباسية في ابان ثروتها فلنوردها باعتبار قدمها . وأقدمها قائمة ابن خلدون ثم قدامة ثم ابن خرداذبه :

١ جباية الدولة العباسية

(في ايام المأمون — نقلاً عن ابن خلدون)

اسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلاً
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	
كور دجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	وسكر ٣٠ ٠٠٠ رطل
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠ ٠٠٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٢٠ ٠٠٠ رطل
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠ ٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	وعود هندي ١٥٠ رطلاً
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلاً
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و٤ ٠٠٠ برذون و١ ٠٠٠ راس رقيق و٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع و٣٠ ٠٠٠ رطل اهليلج
(المجموع)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم

البلد	المقدار	ملاحظات
(مجموع ما قبله)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١ ٥٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ١ ٠٠٠ نقرة
طبرستان والرويان دماوند	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و ٢٠٠ اكسية و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام
الري	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ رطل رب الرمان و ١٢ ٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهرزور	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ راس رقيق و ١٢ ٠٠٠ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء
ارمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ من القسط المحفور و ٥٣٠ رطلا من الرقم (ضرب من الوشي) و ١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السورماهي و ١٠ ٠٠٠ رطل من الصونج (نوع من الاسماك البحرية) و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مهراً
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
افريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١٢٠ بساطاً
(المجموع)	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ حمل زيت
المجموع	٤٠٠ ٠٠٠	درهم

(مجموع ما قبله)	٤٠٠ ٠٠٠	درهم
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	
الاردن	٩٧ ٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠	و ٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢ ٩٢٠ ٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠	سوى المتاع (لم يذكر)
الحجاز	٣٠ ٠٠٠	
(المجموع)	٤ ٨١٧ ٠٠٠	دينار وتساوي ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	
يضاف اليه جباية الاقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	
(الجلة)	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	درهم

وترى من النظر في هذه القائمة ان خراج اقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (الا برقة وأفريقية) وسترى نحو ذلك ايضاً في القائمتين الاخريين والسبب على ما يظهر ان مناجم الفضة كانت اكثر في اقاليم المشرق منها في المغرب وبعكس ذلك مناجم الذهب

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم ومجموع خراج سائر اقاليم المغرب ٤ ٨١٧ ٠٠٠ دينار حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو صرفه في ذلك العصر فبلغت ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم وباضافتها الى جباية اقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠ درهم

ورأينا في ما نقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين في ما لدينا من النسخ — نظنه وجدهما في نسخة فون همر . خراج الاولى ٣٠٠ ٠٠٠ درهم والثانية ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وليس هنا مكان التحقيق

عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية في ايام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ما عدا الاموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته واذا أعدت النظر فيه رأيته شيئاً كثيراً . والعادة في تقدير الجباية ان تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ويضاف مبلغها الى مبالغ النقد كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الأصل من الحنطة وكما سترى في تفصيل خراج طساسيج السواد بقائمتي قدامة وابن خرداذبه

وقد تقدم ان الجباية التي كانت ترد الى بيت المال في بغداد انما هي صوافي ما تحصل منها في الاقاليم بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الري ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ولم يبق على هذا المال الا نفقات الدواوين في بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقد يرتاب القارىء في رواية ابن خلدون لبعدها عما هو مألوف عندنا من ميزانيات دول هذه الايام وما فيهن من بقى في صندوقها معشار هذا المال — ولذلك فنأتي بالروايتين الاخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون

٢ جباية الدولة العباسية

في ايام المعتصم — نقلاً عن قدامة بن جعفر

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير وقد ذكر قدامه مقدار كل منهما مفصلاً باعتبار طساسيج السواد اي نواحيه في الشرق والغرب

طساسيج السواد في الجانب الغربي :

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
(المجموع)	١٤٨٠٠	٧٤٠٠	٥٥٠٠٠٠

(مجموع ماقبله)	١٤٨٠٠	٧٤٠٠	٥٥٠٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
نهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثي	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا وبرنسيما	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الاعلى والاسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلي	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيليحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
(المجموع)	٨٣٢٠٠	٨٥٠٠٠	٥٦٥٨٨٠٠

طساسيج السواد

في الجانب الشرقي :

(مجموع ما قبله)	٨٣ ٢٠٠	٨٥٠٠٠	٥ ٦٥٨ ٨٠٠
طسوج بزر جسابور	٢ ٥٠٠	٢ ٢٠٠	٣٠٠ ٠٠٠
« الرذانين	٤ ٨٠٠	٤ ٨٠٠	١٢٠ ٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١ ٦٠٠	١ ٥٠٠	٣٣٠ ٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١ ٠٠٠	١ ٥٠٠	٢٤٠ ٠٠٠
روستقباد	١ ٠٠٠	١ ٤٠٠	٢٤٦ ٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢ ٠٠٠	١ ٥٠٠	١٥٠ ٠٠٠
جلولا وجللتا	١ ٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠
الذيبين	١ ٩٠٠	١ ٣٠٠	٤٠ ٠٠٠
الدسكرة	١ ٨٠٠	١ ٤٠٠	٦٠ ٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥ ٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣ ٠٠٠	٥ ١٠٠	١٢٠ ٠٠٠
النهروان الاعلى	١ ٧٠٠	١ ٨٠٠	٣٥٠ ٠٠٠
النهروان الاوسط	١ ٠٠٠	٥٠٠	١٠٠ ٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤ ٧٠٠	٥ ٠٠٠	٣٣٠ ٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤ ٠٠٠	٤٣٠ ٠٠٠
نهر الصلة	١ ٠٠٠	٣ ١٢١	٥٩ ٠٠٠
النهروان الاسفل	١ ٧٠٠	١ ٣٠٠	٥٣ ٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥ ٦٠٠	١٢٣ ٩٢١	٨ ٨٢١ ٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥ ٦٠٠ كر حنطة و ١٢٣ ٩٢١ كر شعير و ٨ ٨٢١ ٨٠٠ درهم . على ان هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم فقد قال في ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧ ٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩ ٧٢١ كرًا ومن الورق ٨٠٩٥ ٨٠٠ درهم » [1] ولعل السبب

(١) كتاب الخراج (طبعة ليدن) ٢٣٩

في هـذا الفرق خطأ في قراءة بعض الاعداد . على أن الفرق على كثرته لا يعتد به في ما نحن فيه . بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم وقد فعل جعفر ذلك فحولها باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار فبلغ ذلك ١٠٠ ٣٦١ ٨٥٠ درهم وقال ان صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠ درهماً على هذه الصورة

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقاً
١٠٠ ٣٦١ ٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠	درهماً

هـذا هو ارتفاع السواد فلنتقدم الى ايراد جبايات سائر الاقاليم في المشرق والمغرب . وهي مع السواد : —

اقاليم الشرق	درهم
السواد	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠
اصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠
حلوان	٩٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٥ ٠٠٠ ٠٠٠
ماه البصرة	٤ ٨٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢٢٧ ٦٥٧ ٦٥٠

(مجموع ما قبله)	٢٢٧ ٦٥٧ ٦٥٠
همدان	١ ٧٠٠ ٠٠٠
ماسبذان	١ ٢٠٠ ٠٠٠
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠
قم وقاشان	٣ ٠٠٠ ٠٠٠
آذربيجان	٤ ٥٠٠ ٠٠٠
الري ودماوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠
قزوين وزنجان وابهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠
قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠
جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠
تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
الموصل وما يليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠
قردي وبذيدي	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠
أرزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
طرون	١٠٠ ٠٠٠
آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
ديار مضر	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
أعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٣١١ ٥٨١ ٣٥٠ درهماً

أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠
« دمشق	١١٠ ٠٠٠
« الاردن	١٠٩ ٠٠٠
« فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠
مصر والاسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠
الحرمين	١٠٠ ٠٠٠
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠
عمان	٣٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٥ ١٠٢ ٠٠٠ دينار

وبتحويلها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً تساوي ٧٦ ٧١٠ ٠٠٠ درهم وباضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة اعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠ درهماً وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة [1]

٣ جباية الدولة العباسية

في اواسط القرن الثالث للهجرة — على رواية ابن خرداذبه

فصل ابن خرداذبه جباية أعمال السواد كما فصلها قدامة وزاد على ذلك عدد الشون والبيادر مما يطول بنا ايراده فنكتفي بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة وذلك عبارة عن ٦٣ ٤٠٠ كر حنطة و ٩١ ٨٥٠ كر شعير و ٨ ٤٥٦ ٨٤٠ درهماً نقداً . وبتحويل الحنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكرين المقرونين ستين ديناراً والدينار ١٥ درهماً كما تقدم بلغت قيمتها ٦٩ ٨٦٢ ٥٠٠ درهم وباضافة ذلك الى الدراهم المجموعة نقداً تصير الجملة ٧٨ ٣١٩ ٣٤٠ درهماً

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الاقاليم في الدولة الطاهرية باعتبار

(١) وقد رأينا اختلافاً في قائمة قدامة بين التفصيل والاجمال لعله تطرق اليها من النساخ فمحصناه بقدر الامكان

ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ومقدار ذلك جملة ٠٠٠ ٨٤٦ ٤٤ درهم و١٣ دابة للركوب و٢٠٠٠ شاة من الغنم و٢٠٠٠ راس من السبي الغزية ما قيمته ٠٠٠ ٦٠٠ درهم . ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوباً ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحواً من خمسين عملاً في جملتها الري وقومس وجرجان وكرمان وسجستان ونيسابور وطخارستان والطالقان واعمال ما وراء النهر وفيها بخارى والسغد وغيرها . وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة . وقد اقتصرنا على اجمال ذلك خوف التطويل ومن أراد تفصيل جباية أعمال السواد واعمال خراسان فليراجعها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولنتقدم الى اتمام قائمته عن الاعمال الاخرى مع الاجمال الذي ذكرناه

اقاليم المشرق	دراهم
السواد	٣٤٠ ٣١٩ ٧٨
خراسان وتوابعها	٠٠٠ ٨٤٦ ٤٤
شهرزور والصامغان	٠٠٠ ٧٥٠ ٢
ماسبذان ومهرجان قذق	٠٠٠ ٣٥٠٠
قم	٠٠٠ ٠٠٠ ٢
الاهواز	٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠
فارس	٠٠٠ ٠٠٠ ٣٣
قزوين	٠٠٠ ٢٠٠ ١
ماه الكوفة	٠٠٠ ٣٨٠٠
اصبهان	٠٠٠ ٠٠٠ ٧
ديار مضر	٠٠٠ ٦٠٠ ٥
الموصل	٠٠٠ ٠٠٠ ٤
ديار ربيعة	٠٠٠ ٧٧٠٠
ارمينية	٠٠٠ ٠٠٠ ٤
(المجموع)	٣٤٠ ٧١٥ ٢٧٧ درهماً

اقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم	٤٠٠ ٠٠٠
جند حمص	٣٤٠ ٠٠٠
« دمشق	٤٠٠ ٠٠٠
« الاردن	٣٥٠ ٠٠٠
« فلسطين	٥٠٠ ٠٠٠
مصر	٢ ١٨٠ ٠٠٠
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٤ ٧٧٠ ٠٠٠ دينار

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١ ٥٥٠ ٠٠٠ درهم تضاف الى مجموع جباية أقاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة

درهم	
٢٢٧ ٧١٥ ٣٤٠	جباية اقاليم المشرق
٧١ ٥٥٠ ٠٠٠	« « المغرب
٢٩٩ ٢٦٥ ٣٤٠	الجملة

مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم ان ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المأمون ثم أخذ في التناقص بعده ولم يظهر ذلك النقص الا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة لاسباب سيأتي بيانها . واما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيماً جداً كما تبين من القوائم الثلاث التي ذكرناها وهاك فذلكتها :

درهم	
٣٩٦ ١٥٥ ٠٠٠	جباية الدولة العباسية في أيام المأمون بين سنة ٢٠٤ و ٢١٠ هـ
٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠	« « « « « المعتصم أو بعيده الى سنة ٢٢٥

٣٤٠ ٢٦٥ ٢٩٩ جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث[١]

فترى من مقابلة هذه الارقام ان الفرق في الجباية ظهر حتى في النصف الاول من القرن الثالث وخصوصاً اذا اعتبرت ما أغفلناه من قائمة ابن خلدون من الاموال والامتعة والمحصولات وهي من جملة الخراج . فمعدل الوارد الى بيت المال في العام نحو ٣٦٠ مليون درهم وهي صوافي جباية الاعمال كما قدمنا مما لم نسمع بمثله في الدول قديماً ولا حديثاً — الا اذا اعتبرنا ما أورده بعضهم اجمالاً بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس . فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية ان جباية هذه الدولة في إبان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠٠ درهم منها ٠٠٠ ٠٠٠ ١٣٥ درهم من آسيا (الصغرى) [٢] وذكر ابن خرداذبه ان جباية مملكة الفرس في أيام كسرى برويز بلغت ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٢٠ مثقال أو نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقام اعوزنا الاطلاع على طريقة الانفاق عندهم اذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى . أما ما خلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جداً . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها في أيام السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للهجرة ولم يزد ارتفاع جبايتها في أيامه على ٠٠٠ ٠٠٠ ٨ دوكات[٣] أو نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٦٥ فرنك . فاين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على أضعافه . وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى في صندوقها كما سيأتي

ولنتقدم الى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها هذه الاموال

---

(١) لا يخفى على المتأمل اننا عينا هذه الازمنة بالتقريب اذ قد يرد في قائمة ابن خرداذبه مثلاً خراج اقليم كما وظف عليه في عهد قائمة ابن خلدون أو قدامة وبالعكس وانما اعتبرنا في تعيينها الاغلبية

(٢) Gibbon's Roman Empire I. 110

(٣) Porter's Const. Hist. of Turkey, Ms.

نفقات الدولة العباسية

لم نر في ما كتبه المؤرخون القدماء في العربية نصاً يتعلق بهذا الشأن ولا ندري اذا كانوا فعلوا ذلك عمداً أو ضاع ما كتبوه في ثنيات الزمان . على ان مؤرخي المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامي أو ما هو في معناه كمقدار الدخل أو الخرج وثروة المملكة وحال العلم أو نظام الهيأة الاجتماعية غير ما جاء عرضاً في أثناء ذكر الوقائع الحربية أو وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون فقد أورد جباية الدولة في عرض الكلام عن بذخها في ابانها . واما قدامة وابن خرداذبه فقد ذكرا مقدار الخراج في عرض الكلام عن طرق البريد . وقد ذكر الخراج ايضاً بعض اصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكنهم لم يذكر أحد منهم شيئاً عن الشؤون التي تنفق فيها الاموال المجموعة من الخراج في العصر الذي نحن في صدده

على اننا بالقياس على ما عرفناه من أحوال ذلك التمدن نرجح أن المال المشار اليه كان يوضع في بيت المال بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر ارباب المناصب في دواوين الحكومة في بغداد والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كان عملهم في الخارج مثل عمال البريد (١) وغيرهم . وما بقي من أموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع في بيت المال تحت اجتهاد الخليفة (٢)

أما مقدار ما كان ينفق على الجند بالدواوين وغيرهم فما لا يمكن القطع فيه لانه يختلف باختلاف العصور وأحوال الخلفاء ولم نقف على شيء صريح في هذا الشأن في العصر العباسي الاول ولا في غيره

على أننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشترطه احمد بن محمد الطائي على نفسه ان يقدمه من ضمانه الى بيت المال — وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩ هـ) (٣) وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين

(١) ابن خرداذبه ١٥٣ (٢) الماوردي ١٧٩
(٣) Einnahmebudjet des Abbasiden Reiches

تدفع رواتبهم من بيت المال وجملة ذلك ٢٥٠٠٠٠٠ دينار في السنة تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباسية

في ايام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة

دينار في اليوم	
١٠٠٠	ارزاق اصحاب النوبة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجنابيين والبصريين واصحاب المصاف بباب العامة وغيرهم والسودان واكثر مماليك الناصر
١٠٠٠	ارزاق الغلمان الذين اعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) ويعرفون بالغلمان الخاصة
١٥٠٠	ارزاق الفرسان من الاحرار المميزين
٦٠٠	ارزاق المختارين وهم جند منتخب من كل قيادة وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة
٥٠٠	ارزاق الفرسان المثبتين في أيام الناصر
٩١٠	« سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء واصحاب الاخبار والمؤذنين والمنجمين والفنجاميين واصحاب الاعلام والبوقيين والمضحكين والطبالين وغيرهم
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة في مدينة السلام وغيرها
٣٠٠	أثمان ازال المماليك وغيرهم
٣٣٣ ١/٣	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والخابز وأزال الحرم والحشم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة والآلة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وخزائن السلاح والفرش الخ
٥٤٩٣ ١/٣	(المجموع)

٥٤٩٣ ½	(مجموع ما قبله)
٤	ارزاق السقايين بالقرب في القصر والخزائن والخباز والدور والحجر والخدم الخ
١٦٧	ارزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك دون الاكابر الاحرار ومن أضيف اليهم من الحشم القدماء
١٠٠	ارزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والعقادين والاساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين والنجارين والخراطين والاسفاطيين وغيرهم الخ
١٠٠	ارزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة
٦٦ ⅔	ما يصرف في ثمن الكراع والابل والخيل الخ
٣٠	ارزاق المطبخين
٣٠	« الفراشين والحلبيين وخزان الفرش والحمالين
٥	« أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد
٤٤	« الجلساء واكابر الملهين ومن يجري مجراهم
٢٣ ½	« جماعة من المتطببين وتلامذتهم الخ
٧٠	« اصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابزيين وغيرهم
١٦ ⅔	« الملاحين في الطيارات والشذاذات والحراقات وغيرهامن السفن
٤	ثمن النفط والمشاقة للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال لخدمتها
١٥	الصدقة التي تحضر كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء
٣٣ ⅓	جاري أولاد المتوكل
١٦ ⅔	« « الواثق
٦٦١٩	(المجموع)

٦٦١٩	(مجموع ما قبله)
١٦ ٢/٣	جاري اولاد الناصر
٢٠	ارزاق مشائخ بني هاشم واصحاب المراتب والخطباء في المساجد
٣٣ ١/٣	أزراق جمهور بني هاشم من العباسين والطالبيين
٣٣ ١/٣	جاري عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (في الشهر) برسم العرض
١٥٦ ٢/٣	ارزاق اكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والاعوان وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد ـ سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم وأعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون أرزاقهم مما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم
١٦ ٢/٣	جاري اسحق بن ابراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب والد ابي عمر وأولادهما وعشرة نفر من الفقهاء
٣ ١/٣	جاري المؤذنين في المسجدين والمكبرين والقوام والائمة وثمن الزيت للمصابيح والحصر والبواري والماء وثمن الستار للصيف والجلباب والخزف والعمارة في شهر رمضان
٥٠	نفقات السجون وثمن أقوات المحبسين
١٠	نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما وارزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي ولم يكن يومئذ غيره وارزاق المتطببين والمأنين والكحالين ومن يخدم المغلوبين على عقولهم والبوابين والجنازين وغيرهم وأثمان الطعام والادوية والاشربة
٦٩٧٤	(الجملة)

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار وذلك نفقات الدولة العباسية في اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ومجموع ذلك في السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها في أيام المأمون والمعتصم نحو ذلك ـ

وهي في اعتقادنا يجب أن تكون أقـل من ذلك بالنظر الى تكاثر الغلمان والمماليك في أواخر القرن الثالث عما كان في اوائله ــ فاذا فرضنا النفقات واحـدة في أيام المأمون والمعتضد وحولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً على الاكثر بلغ ذلك ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم فاذا اسقطناها من معدل الجباية الذي ذكرناه وهو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم كان الباقي ٣١٠٠٠٠٠٠٠ درهم او قل ٣٠٠ مليون فقط. فالدولة التي يبقى في بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد في معظم الثروة لاننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى في صندوقها نصف هذا المال او ربعه او عشره الا ما قدمناه عن دولتي الروم والفرس

وزد على ذلك ان هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية لانها عبارة من خراج ما ضمنه الطائي من البلاد وهي سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق والذيبين وكلواذى ونهر بين والرذانين وطريق خراسان وكلها من العراق وهي بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة صفحة ٥٤ ــ فلا مشاحة في ان نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض اعمالها

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣ م)

ولكي ينجلي لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث يجب ان نحولها الى نقود هذه الايام . وقد تقدم ان الدينار كان صرفه في النصف الاول من القرن الثالث ١٥ درهماً فمقدارهذه الثروة بالدنانير ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ويقدرون الدينار بنقود هذه الايام بنصف جنيه فيكون مجموع الباقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين جنيه

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات أو ما يستخدم به من الرجال فصاحب الف جنيه في بلاد يباع فيها أردب الحنطة بخمسين قرشاً يعد بمنزلة صاحب الفين في بلاد يباع فيها الاردب بمئة قرش

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعدُّ عندنا في أوائل القرن الماضي من الاغنياء لان حاجيـات الحياة كانت رخيصة جدًّا ثم أخذت أثمانها تتصاعد بتكاثر الناس وتفننهم في طرق المعائش ولاسباب أخرى حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس في شهر واحد .

وقد لاحظنا فرقاً واضحاً في سعر الذهب في الاعوام الاخيرة بعصر يجدر بالحكومة ان تنتبه له وتراعيه الملاقته برواتب مستخدميها — وذلك انه بالنظر الى تصاعد أثمان المآكل وأجور المساكن زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام أو ستة فالموظف الذي كان ينفق على عائلته الف قرش في الشهر مثلاً أصبح لا يكفيه أقل من ١٢٥٠ أو ١٣٠٠ قرش والراتب الذي كان يتقاضاه لا يزال واحداً ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب — فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي ان تزاد رواتبهم كلما غلا السعر

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام يجب ان تقابل بين أثمان المحصولات يومئذ واثمانها اليوم وأجور العمال في العصرين . وقد رأيت في ما تقدم ان ثمن الكر من الحنطة والشعير في أيام قدامة [١] ثلاثون ديناراً والكر العراقي أربعون أردباً [٢] والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه فالاربعون أردباً بأربعين جنيهاً أو ثمانين ديناراً اي نحو ثلاثة امثاله في تلك الايام

وكانت أجرة الاستاذ البناء في أيام المنصور قيراط فضة والروزكاري (الفاعل) حبتين [٣] والقيراط في العراق $\frac{1}{20}$ من الدينار [٤] والحبة $\frac{1}{60}$ منه فكان أجرة الاستاذ بنقود هذه الايام $\frac{3}{4}$ الدرهم أي نحو ثلاثة قروش واجرة الفاعل قرش وذلك نحو ثلث أجرته اليوم أو ربعها . فالنقود في أيام العباسيين كانت تساوي ثلاثة اضعاف ما تساويه اليوم على الاقل . فالباقي في بيت مال العباسيين في السنة يساوي ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الايام وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده يستخدمها في الجهات التي يريدها أو يتراءى له فيها مصلحة للدولة — فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلاني اعطى شاعراً مئة الف درهم او عشرة آلاف دينار . ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمئة الف جنيه والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه او مليون — وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش

---

(١) قدامة ٢٣٩ (٢) محيط المحيط (٣) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٥
(٤) محيط المحيط

وما في دول هذه الايام ما يزيد الباقي في صندوقها على مليون واحد الا نادراً مع أن مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه في ايام العباسيين . خذ انكلترا مثلاً وهي من أعظم الدول وأقربهن الينا الآن فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه منها : ـ

جنيه	
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاي
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع العقود ونحوها
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	المجموع

فترى من هذا المجموع ان نحو أربعة أخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر في صدر الدولة العباسية

ويغلب في نفقات الدول الحديثة ان تساوي دخلها او يبقى لها باق قليل جداً يندر ان يزيد على مليون جنيه وكثيراً ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها كما حدث لانكلترا في الاعوام الاخيرة أثناء حربها في جنوبي افريقيا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور ـ فما هو السبب في الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ ولا يتضح لنا ذلك الا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية فنقول : ـ

اسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية ان مثل هذه الثروة لا يتأتى الا اذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقي من اسقاط الخرج من الدخل . فلنبحث في أبواب الدخل وهي مصادر الجباية وفي أبواب الخرج وهي سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ونبين أسباب كثرة الاولى وقلة الثانية

مصادر الجباية

كانت الجباية في أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح النبي من نصارى جزيرة العرب ويهودها وتوفي النبي ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح في الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على نحو ذلك في أيام بني أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف في تحصيلها كما تقدم. ومما وضعوه في ايامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان في اثناء ولايته ارمينيا سنة ٧٢ هـ (١) ونظنهم وضعوا ايضاً اعشار السفن وهي العشور التي تؤخذ من المراكب المارة في البحار . واخماس المعادن التي تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجباية ترتقي وتتفرع حتى أصبحت في أيام العباسيين عديدة ترجع الى احد عشر وهي :

(١) الصدقة او الزكاة
(٢) الجزية
(٣) الخراج
(٤) المكوس (الفردة)
(٥) الملاحات والاسماك
(٦) اعشار السفن
(٧) اخماس المعادن
(٨) المراصد (الكمارك)
(٩) غلة دار الضرب
(١٠) المستغلات
(١١) ضرائب الصناعة وغيرها

---

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٤

على ان العمدة في زيادة الثروة أنما هي على الخراج حتى أنهم سموا مجموع الجباية خراجاً باطلاق البعض على الكل . فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جبايتها من كل الضرائب . وعليه فلنبحث اولاً في الخراج وسبب كثرته في العصر العباسي الاول ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار

اسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ولكثرته في الدولة العباسية أسباب أهمها اربعة وهي :

(١) سعة المملكة العباسية

لما كان المعول في مقدار الجباية على الخراج فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة ارضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية في العصر العباسي الاول كانت عظيمة الاتساع جداً بل هي اوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً اذا اعتبرنا اسبانيا منها) الا مملكة الاسكندر فربما قاربتها

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها أنما يعرف من مساحات الممالك التي قامت مقامها اليوم وهي :

مساحة المملكة العباسية

في القرن الثالث للهجرة

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها (سنة ١٩٠٣)	مساحتها بالاميال
ايران كلها	شاه العجم	٦٢٨ ٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٢١٥ ٠٠٠
بلوجستان	انكلترا	١٣٠ ٠٠٠
السند	انكلترا	٤٨ ٠٠٠
	(المجموع)	١ ٠٢١ ٠٠٠

	(مجموع ما قبله)	١٠٢١٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧٠٠٠
قوقاسيا (تفليس)	روسيا	١٥٣٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٧٢٥٠٠
العراق / الجزيرة	تركيا	١٠٠٢٠٥
سوريا / فلسطين	تركيا	١٠٩٥٠٩
جزيرة العرب (منها)	تركيا	٢٠٠٠٠٠
القطر المصري	تركيا	٤٠٠٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠٠٠٠
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١٠٠٠
مراكش	مستقلة	٢١٩٠٠٠
	(المجموع)	٣٣٢٨٠١٤ ميلاً مربعاً

فمجموع مساحة هذه المملكة ٣٣٢٨٠١٤ ميلاً مربعاً وذلك نحو مساحة اوربا كلها . فخراج ممالك اوربا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول في جبايتها على الخراج لما استقام أمرها وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والكمارك كما تقدم

على ان سعة المملكة العباسية لا تكفي وحدها لتعليل ثروتها لان المملكة العثمانية بلغت من السعة في أيام السلطان سليمان القانوني ما يقرب من سعة مملكة بني العباس ومع ذلك فان الجباية في ايامه لم تزد على ٦٥٠٠٠٠٠٠ فرنك كما رأيت وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام النـاس في الزراعة وثقل الضرائب وخصب الارضين وغير ذلك

(٢) اشتغال الناس في الزراعة

قلنا في كلامنا عن بيت المال في عصر الامويين ان عمالهم كانوا يسيئون اصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع فاهملت الارض وزادها اهمالاً انتشاب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها فاصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال [١] وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ونشروا لواء العدل وأحسنوا معاملة أهل الذمة والموالي وأمنوهم على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره

وكان للخلفاء الاولين من بني العباس عناية كبرى في تأييد الامن وتعمير البلاد ورعاية أهلها من الذميين والموالي . فالمنصور كان يتتبع العمال الظلام ويأخذ أموالهم ويستبدلهم بسواهم ويضع ما يأخذه من اموالهم في بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم [٢] وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضاً ويبحث عن كل ما يقضي به القضاة أو يعمل به الولاة وعما يرد الى بيت المال وعن كل حدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب واذا شك في شيء مما قضى به القاضي سأله ووبخه [٣] . وبعد ان كان الموالي كالارقاء في أيام بني أمية أصبحوا في أيام العباسيين هم أهل الدولة وحماة الخلافة يوصي الخلفاء بعضهم بعضاً برعايتهم وخصوصاً آل خراسان فقد أوصى المنصور ابنه المهدي قائلاً « انظر الى مواليك فاحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك وأوصيك باهل خراسان خيراً فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك » [٤] وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره في النظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهديهم . ومن وصاياه لابنه المذكور « يا بني لا يصلح السلطان الا بالتقوى ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل »

وأدلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدي

(١) الفخري ١٥٧ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) الطبري ٤٣٥ ج ٣
(٤) ابن الاثير ٨ ج ٦

يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته وأهله . وأخبار الرشيد في العدل اكثر من أن تحصى وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك انه كان قد حبس أبا العتاهيــة وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول فرأوه يوماً قد كتب على الحائط .

اما والله ان الظلم لؤم … وما زال المسيء هو الظلوم

الى ديان يوم الدين نمضي … وعنــد الله تجتمع الخصوم

فاخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه الف دينـار . وله مع أبي العتاهية حديث أغرب من هذا وهو ان الرشيد أولم وليمة ووضع طعاماً وطلب الى أبي العتاهية أن يصف ما هم فيه من النعيم فقال :

عش ما بدا لك سالماً … في ظل شاهقة القصور

يسعى عليك بما اشتهيـ … ـت لدى الرواح وفي البكور

فاذا النفوس تقعقعت … في ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقناً … ما كنت الا في غرور

فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحي « بعث اليك امير المؤمنين لتسره فحزنته » فقال الرشيد « دعه رآنا في عمى فكره ان يزيدنا » (١)

وأمثله ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لا يستوعبــه كتاب . فكيف لا يستتب الامن في ظل هؤلاء ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة في حمايتهم وكيف لا يتقاطر النـاس الى جوارهم والاستهلاك في خدمتهم . وكيف لا تعمر البلاد في ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عبـاده فلا عمران الا في ظله ولا حياة الا به . ولا يتم عز للسلطان الا بالعدل اذ لا عزّ للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل(٢) والعدل أساس الملك

ومما ساعد على عمران المملكة العباسيــة ان الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم في تعمير ما تركه الامويون خراباً من الضيــاع والمزارع بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها (٣) فضلاً عما كانوا يبذلونه من العناية في احتفار الأنهر وانشاء السدود وغيرها من مسهلات الري

(١) ابن الاثير ٨٨ ج ٦ (٢) ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ (٣) الفخري ١٥٧

(السواد) فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها وخصوصاً السواد (او العراق) فانه من أخصب بقاع الارض واذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ١٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية من أيام الفرس فقد جباه قباذ بن فيروز ١٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم [1] وجباه كسرى بن قباذ ٢٨٧٠٠٠٠٠٠ درهم [2] وجباه غيرهم من ملوك الفرس ١٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم سوى ٣٠٠٠٠٠٠ من الوضائع لموائد الاكاسرة [3] — كانوا يجبون ذلك على غير ظلم ولا عسف ولكنهم كانوا يعتنون بالري فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور . ووادي الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادي النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب ويفيضان في الشتاء والنيل يجري من الجنوب الى الشمال ويفيض في الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى اصلاح ماتخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء

وكان ماء دجلة يجري قديماً غير مجراه اليوم . اي انه كان يجري مثل مجراه اليوم من بغداد جنوباً الى المدائن فالدير فالعاقول فجرجرايا فجابول الى ماذرايا ومن هناك ينعطف غرباً حتى يسير سيراً عمودياً الى فم الصلح فواسط حتى يصب في البطائح حيث يلتقي بالفرات ومنها الى دجلة العوراء بقرب البصرة ومنها الى خليج فارس قرب عبادان . ثم جرى بعد ذلك من ماذرايا شرقاً ثم انعطف جنوباً شرقياً على ماهو عليه اليوم . وكان الفرات فرعين احدهما بجانب الكوفة والآخر شرقيه وكلاهما يصبان في البطائح

(البطائح) والبطائح مستنقعات او أرض كان يغمرها الماء في أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وسببها ان دجلة انبثق في أيام قباذ فيروز بثقاً كبيراً بقرب كسكر فاغفل أمره حتى غلب ماؤه وغرق كثيراً من ارضين عامرة كانت تليه وتقرب منه . فلما ولي أنو شروان العادل الشهير امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الارضين الى العمارة ثم خلفه ابنه برويز وفي ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (في السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوق كبار فجهد برويز ان يسكرها حتى ضرب اربعين سكراً في يوم واحد فلم يقدر على رد

(١) ابن خرداذبة ١٤ (٢) الماوردي ١٦٥ (٣) ابن الفقيه ٢٠٥

الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها أحد ويعجز الدهاقين عن سدها فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت [١] ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيراً فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠٠٠٠٠ درهم في خلافة معاوية بن أبي سفيان [٢] لكنهم قلما عنوا في اصلاحها والانتفاع بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الري . وفي ايامه انبثقت بثوق أخرى وكبرت البطائح فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبرها وانه قدر على سدها للنفقة ٣٠٠٠٠٠٠ درهم فاستكثرها الوليد فقال له اخوه مسلمة ابن عبد الملك « انا أنفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الارضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على أيدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فحصلت للوليد أرضون وطساسيج كثيرة فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة والمزارعين وعمر تلك الارضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مالاً كثيراً ثم جرى الناس على ذلك الى أواخر بني امية [٣]

ولما افضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم جعلوا همهم احياء ارضه باحتفار الانهر وانشاء الجسور حتى تشبكت الترع في السواد وأصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز تخترق اليه انهار من الفرات [٤] وقس على ذلك سائر انحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا في أيام العباسيين لارتياح الناس الى العمل ورغبة الخلفاء في تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك

﴿ خراسان ﴾ ومن البلاد التي زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان فقد كانت ارض خصبة مع سعتها ورغبة أهلها في نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم اذا أضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بني العباس في إبان دولتهم مبذولة في هذين البلدين وفي الحجاز . أما العراق فللمال واما خراسان فللمال والرجال . وأما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان في ذلك

---

(١) قدامة ٢٤٠ (٢) الماوردي ١٧١ (٣) قدامة ٢٤١
(٤) الاصطخري ٨٣

الوقت مما لا ريب فيه ـ قال المقدسي في عرض كلامه عن مدائن العراق وقد أطنب في عمرانها « فهذه مدن بغداد وبخراسان قرى كثيرة أجلّ من اكثر هذه المدن » (١) وكثيراً ما كان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها (٢)

ويدخل في ولاية خراسان بلاد ما وراء النهر وهي كثيرة الخصب جداً ـ قال ابن حوقل « ولم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارا لانك اذا علوت قهندزها لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » قال « والمشار اليه من متنزهات الارض سغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » (٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية في ذلك العصر الزاهر (راجع خريطة المملكة الاسلامية الملحقة بهذا الكتاب)

﴿ مصر ﴾ ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية فان العدالة توطد دعائم الامن واذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل فتعمر البلاد ويرفه أهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامي نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس على ما أجمع عليه مؤرخو العرب ويستبعد أهل هذا الزمان امكانه . واكثر منهم استغراباً أهل أوائل القرن الماضي . فقد ذكر الدكتور كلوت بك تقدير العرب لسكان وادي النيل انه عشرون مليوناً وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتمل ان يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » (٤) وقد رأينا اليوم انه زاد على نصفه ولا يزال آخذاً في الزيادة

أما كلوت بك فانه أعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣٠٠٠٠٠٠ نفس فقط على انه لما ذكر هذا الاحصاء اظهر إعجابه بزيادة سكان وادي النيل في ظل محمد علي باشا عما كانوا عليه في أيام المماليك لما كان من عدالته ورغبته في احياء البلاد

أما في أيام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢٠٠٠٠٠٠

---

(١) المقدسي ١٢٢ (٢) اليعقوبي ٥٥٥ ج ٢ (٣) ابن حوقل ٣٤٥
(٤) Aperçu gen. sur l'Egypte I. 165

ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد مساحتها على مليون فدان وبعض المليون بالنظر الى ما كان يقاسيه المصريون من استبداد الامراء المماليك . فلما ظللهم العدل في عهد محمد علي وخلفائه تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة حتى بلغت الآن ٥٠٠٠٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهي آخذة في الزيادة . وبالطبع ان مقدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان وهما لا يكونان الا في ظل العدل الصحيح — اعتبر ذلك في جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى أنها تمشت على هذه القاعدة تماماً :

كانت جباية مصر في زمن الراشدين أعلى ما بلغت اليه في الاسلام. فقد جباها عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار ومساحة الارض المزروعة على تقديرهم ٣٠٠٠٠٠٠ فدان . وجباها عبدالله بن سعد في أيام عثمان ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار ولكنه استعمل العنف في تحصيلها [١] . فلما كانت أيام بني أمية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ولم تزد في أيامهم على ٣٠٠٠٠٠٠ دينار الا في أيام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤٠٠٠٠٠٠ دينار لانه بذل الجهد في تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيراً لبعد مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ما كانت عليه في أيام بني امية . ولما أخذت الدولة العباسية في التقهقر زاد انحطاط الجباية في مصر حتى اصبح في بعض سني القرن الثالث للهجرة ٨٠٠٠٠٠ دينار فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت جبايتها في أيامه ٤٠٠٠٠٠٠ دينار مع رخاء الاسعار وكان القمح كل عشرة أرادب بدينار [٢] فلما انقضت دولة بني طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ هـ جباها جوهر القائد ٧٠٠٠٠٠٠ دينار [٣] لكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الجباية فانحطت وارتقت تبعاً لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه

وآخر عهدنا بانحطاطها على أيام الامراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جداً مع كثرة الضرائب والتشديد في تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) : —

(١) ابن حوقل ٨٨ (٢) المقريزي ٩٩ ج ١ (٣) ابن حوقل ١٠٨

الوارد

ميدة أو نصف	
٨٠ ٤٦٠ ٠٦٨	مال الميري على القرى والاوقاف
١٠ ٨٧٠ ٧٧٣	« « « الايراد
٢٢ ٨١١ ٨٠٥	« « « الصنائع والمأكولات
٢ ٥٠٩ ٠٨١	« « « على الرؤوس
١١٦ ٦٥١ ٧٢٧	

الخارج

ميدة او نصف	
٢ ٩٣٩ ٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩ ٧٧٢ ٦٥٧	« الجند
٢ ٦٠٣ ٥٨٥	« مختلفة
٨ ٤٣٨ ٩٩٤	« العلماء والتعليم ووقفيات
١٣ ٨٩٢ ١٣٩	« رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢ ٠٧١ ٦٥٤	« الحج

٩٩ ٨٦٨ ٢٧٦ مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد اعلاه

١٦ ٧٨٣ ٤٥١ الباقي

والباقي المشار اليـه كانوا يسمونه الخزنة وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة . ولما تمرد حكام مصر حاول بعضهم اسقاطها والبعض الآخر تخفيضها ثم انتهت أخيراً أن يقتطعوا منها ٩ ٢٨٣ ٤٥١ نصفاً في مقابل نفقات فوق العادة على هـذه الصورة :

ميدة أو نصف	
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع القاهرة
١ ٥٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع سائر القطر
٢ ٠٠٠ ٠٠٠	أثمان سكر وخلافه
٢ ٧٨٣ ٤٥١	نفقات اخرى يأمر بها شيخ البلد
٩ ٢٨٣ ٤٥١	الجملة

فاذا اسقط هذا المال من الخزنة المذكورة كان الباقي ٧ ٥٠٠ ٠٠٠ ميدة [١]

وخلاصة ما يهمنا في هذا المقام ان مجموع الايراد في عصر المماليك بلغ ٧٢٧ ١١٦ ٦٥١ نصفاً او ميدة والميدة في تلك الايام كانت تساوي اربعة سنتيمات تقريباً [٢] او كل ٢٨ نصفاً تساوي فرنكاً واحداً . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالفرنكات نحو ٤ ١٥٠ ٠٠٠ فرنك . غير ان قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضاني سبعة انصاف وثمن أردب القمح ٢٤٠ نصفاً [٣] فاذا قسنا ذلك بأثمانها في هذه الايام رأينا الميدة أو النصف يقابل نصف القرش المصري تقريباً . فتكون جباية مصر في عصر المماليك تساوي نحو ٥٨ ٠٠٠ ٠٠٠ قرش مصري او ٥٨٠ ٠٠٠ جنيه . فلما تولتها العائلة الخديوية وعملت على عمرانها أخذت جبايتها في الزيادة حتى بلغت في العام الماضي ١١ ٨٥٠ ٠٠٠ جنيه أي اكثر من عشرين ضعف جبايتها في ايام المماليك والتربة واحدة والنيل واحد والفصول على حالها — وانما هي العدالة يكثر في ظلها الناس وتخصب الارض وتتوفر الثروة — سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً

---

(٣) ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الارض في المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف

---

(١) Descrip. d'Egypte XII. (٢) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

(٣) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

البلاد فبعضها بالمساحة أي ان يضربوا على المساحة المعلومة من الارض مالاً معيناً في العام سواءٌ زرعت تلك الارض ام لم تزرع . والبعض الآخر بالمقاسمة أي ان يكون الخراج جزءاً من حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها . فما لم يزرع لا يطالب بالخراج وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتي بيانها .
ولما كان السواد (او العراق) أهم اقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به

(السواد) كان السواد لما فتحه المسلمون يجبى بالمساحة باعتبار « الجريب » وهو قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعاً في ستين أي ٣٦٠٠ ذراع مربع فكل ما كانت مساحته جريباً كان الفرس يأخذون عليه قفيزاً ودرهماً [١] . والقفيز عشر الجريب ويعبرون عن القفيز وزناً بثمانية أرطال ويقدرون قيمته ثلاثة دراهم [٢] وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة في الجاهلية ومن ذلك قول زهير ابن ابي سلمى

تغلُّ لكم ما لا تغلُّ لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهماً يؤخذ عليه اربعة دراهم اي نحو ١٣ ½ في المئة وهو خراج خفيف جداً – لولا ان كثيراً من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع أصحابها الخراج عنها

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب وعلم بما كان الفرس يجبونه أمر بمساحته فمسحوه له وعدلوه باعتبار نوع الغرس . وخلاصة ذلك انه ابقى الخراج على الحنطة كما كان في أيام الفرس اي على الجريب قفيز ودرهم او اربعة دراهم . وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ومن النخيل ثمانية دراهم ومن القصب ستة دراهم والرطبة خمسة دراهم وعلى الشعير درهمين وعلى الرأس من الناس ١٢ درهماً او ٢٤ او ٤٨ درهماً واخرج من ذلك النساء والصبيان [٣] وكان العمال يجبون السواد لعمر المذكور ١٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم باعتبار انه ٣٠٠٠٠٠٠٠ جريب . وظل السواد في ايام الراشدين عامراً واكثره مزروع . فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان واشتغل المسلمون بالحروب الى ايام بني امية واستصفاء الاموال في ايام معاوية والحجاج وغيرهما اشتغل اهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك

(١) الماوردي ١٦٥ (٢) الماوردي ١٤١ (٣) كتاب الخراج لابي يوسف ٢٠

فان الحجاج جباه نحو جبايته في أيام عمر ولا بد انه استخدم العسف والشدة في ذلك لان صاحب الارض كان يطالب بالخراج عن ارض لم يزرعها فاذا لم يؤدّ ما عليهـا ظلّ عليه الخراج ديناً عاماً بعد عام فيتراكم ذلك على اصحاب الارضين وهم يزدادون ضنكاً فخربت البلاد وهجرها اهلهـا وجرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر اصحاب الارضين الى الالجاء كما سيأتي . ناهيك بمـا كان في نفوس أهل السواد وغيرهم من كره بني امية لتعصبهم للعرب واحتقارهم غير العرب ولو كانوا مسلمين

فلما افضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ وجهوا عنايتهم الى السواد بنوع خاص واول من فعل ذلك منهم المنصور فانه نظر في السواد فاذا هو يكاد يكون خراباً للاسباب التي قدمناها فرأى استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ظلماً فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما اكثر غلات العراق) اي ان يؤخذ خراج الارض من غلتها اذا زوعت فاذا لم تزرع لا يؤخذ منهـا شيء وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة [١] ولا ندري كم جعل حصة بيت المال من المقاسمة المذكورة ولكننا نعلم ان ابنه المهدي (من سنة ١٥٦ ـ ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف في الارض التي تسقى سيحاً اي بدون تعب وبالثلث في الارض التي تسقى بالدوالي وبالربع في الارض التي تسقى بالدواليب وأبقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض ـ اشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار [٢] فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريباً لان أكثره يسقى سيحاً وهو خراج ثقيل ولكن الناس عدوه يومئذ فرجاً ورحمة

ويظهر ان الهادي أو الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها اي ستة اعشارها وظل ذلك شأنها الى سنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشر وأبقى النصف فقط [٣] وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجاً الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين [٤] فكأنه اسقط عشرين في المئة

(١) الماوردي ٧٧ و ١٦٨ (٢) الماوردي ١٦٨ والفخري ١٦٤ والبلاذري ٢٩١
(٣) الطبري ٦٠٧ ج ٣ و ابن الاثير ٤٨ ج ٦ (٤) الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣

من مقدار الخراج . وخفض خراج بعض البلاد الاخرى غير السواد كالري فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فأقام فيها مدة وامر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ اهل قم ذلك طلبوا اليه ان يحط خراجهم كما فعل بالري فأبى فتمردوا وامتنعوا عن اداء الخراج وكان مقداره ٢٠٠٠٠٠٠ درهم فحاربهم المأمون وجباه في ذلك العام ٧٠٠٠٠٠٠ درهم تأديباً لهم (١)

فترى مما تقدم ان خراج السواد كان ثقيلاً بالنظر الى ما كان عليه في أيام الراشدين على المساحة . لأنهم كانوا يأخذون على الجريب اربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ أو نسبة ١٠٠ : ٣٣٣ ⅓ فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣ ⅓ وهو خراج زهيد بالنظر الى الارض التي تزرع وأما بالنظر الى ما يبقى بوراً فهو كثير وربما كان المعدل في الحالين واحداً — يدلك على ذلك ان الفرق في ارتفاع الخراج بين المساحة في ايام الراشدين والمقاسمة في إبان كثرتها لا يعتد به . أما بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣ م) فان ضرائب السواد ما زالت حتى في ايام المأمون ثقيلة اذ ليس في العراق الآن ارض يزيد خراجها على خمس غلتها وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفي لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقاسمة . لأنهم مسحوا الارضين وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتها باختلاف المغروسات فالارض التي غلتها كيل زيتون او حمل ورق توت او بذار مد قمح أو ما تساوي قيمته ٣٦٠ قرشاً سموها سهماً وفرضوا على السهم ٢١ قرشاً الا ربع قرش فيكون الخراج ٦ في المئة فقط

﴿ مصر ﴾ ويلي العراق بالخصب مصر وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة والقصبة خمسة اذرع بذراع النجار وستة اذرع وثلثا ذراع بذراع القماش (٢) وفي تعريف الحكومة المصرية اليوم الفدان ٣٣٣ ⅓ قصبة والقصبة ٣،٥٥ من المتر المربع وبتحويله الى أمتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع وقد تزيد أو تنقص قليلاً (٣)

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون في عهد بني أمية من العسف وزيادة

(١) الطبري ١٠٩٣ ج ٣ (٢) المقريزي ١٠٣ ج ١ (٣) القوانين العقارية ١٦٩

الضرائب فدخلت الدولة العباسية ومصر اكثرها خراب لما كان يسومهم عمال بني امية من زيادة الخراج وأشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن الحبحاب في ايام هشام بن عبد الملك فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار كما تقدم فآل ذلك الى ثورة كبرى . على ان الثورات كانت تتوالى في مصر بسبب ضغط العمال فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية اعمالهم وملاحظة سيرهم كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادي النيل من مركز خلافتهم. فكان العمال حتى في صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ويشددون في تحصيله كما فعل موسى بن علي سنة ١٥٦ ﻫ في أواخر ايام المنصور وموسى بن صعب في أيام المهدي فانه ضاعف الخراج وشدد في استخراجه [١] وربما كان ذلك بايعاز الخليفة لان المهدي زاد الخراج على أهل العراق كما رأيت

أما في أيام المأمون أي في ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان [٢] وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن اذا اعتبرنا الفرق في السعر بين تلك الايام واليوم . لان الخراج المضروب على اطيان مصر الخراجية (وهي الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصبها وهو وان كان على المساحة فاساسه المقاسمة . لأنهم قسموا القطر المصري الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها . وأخصب النواحي لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشاً [٣] وأمثال هذه الفدادين قليل جداً . وأما الاكثر فخراجه حوالي مئة قرش وفيها ما خراجه عشرون قرشاً أو عشرة قروش . واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب لان الفدان الذي تقدير خراجه مئة قرش مثلاً يضمن بخمسة جنيهات أو ستة

واذا استخرجنا معدل خراج مصر على كل الفدادين رأينا معدل خراج الفدان لا يزيد على ٨٥ قرشاً لان في القطر المصري نحو ٥٠٠٠٠٠٠ فدان زراعي بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية ٤٦٥٢٥٧٠ جنيهاً [٤] فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشاً وقد تقدم في غير هذا المكان ان القرش اليوم يساوي ثلث قرش تلك

---

(١) المقريزي ٣٠٨ ج ١ (٢) المقريزي ٩٩ ج ١ (٣) القوانين المقارية ١٦٤ وما بعدها (٤) ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢

الايام . فالديناران خراج الفدان في أيام المأمون يساويان ستة دنانير في هذه الايام او ثلاثة جنيهات . فيكون خراج مصر في أيام المأمون يزيد على ثلاثة اضعافه في هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكن يظهر ان الخراج في مصر زاد بعد المأمون حتى بلغ في اواسط القرن الرابع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفاً فجعلها هو سبعة دنانير [1] وذلك شيء كثير

وقد رأينا في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي انه « ليس على مصر خراج ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام وتركت ثم يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الارض ويعطى ما بقي للفلاح » ولكن ذلك كان خاصاً بالارضين التي كانت الحكومة تقبلها أي تضمنها وليس لها مالك وقد تكون في الاصل لبعض القواد أو العمال من الروم الذين قتلوا في الحرب أو هربوا فبقيت حلالاً لبيت المال كما تقدم فيضمنها الحاكم ويأخذ ضماتها عيناً أو نقداً

(بلاد اخرى) وهناك بلاد بعضها كان يجبي بالمساحة والبعض الآخر بالمقاسمة . فبلاد فارس مثلاً كان خراجها على ثلاثة أصناف (١) المقاسمة (٢) المساحة (٣) القوانين وهي المقاطعات . على ان اكثر بلاد فارس على المساحة وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فاثقلها في شيراز [2] فان خراج الجريب حنطة أو شعيراً ١٩٠ درهماً والجريب من الارطاب والمباطخ ½ ٢٣٧ درهم ومن القطن ٢٥٦ درهماً وأربعة دوانق ومن الكرم ١٤٢٥ درهماً ولكن الجريب عندهم كبير أي سبعون ذراعاً بذراع الملك وهو تسع قبضات [3] فافرض الجريب جريبين من أجربة العراق فالخراج مع ذلك لا يزال ثقيلاً جداً . وهو خراج تلك البلاد في أواسط القرن الرابع ولم نقف على مقداره في ايام المأمون

ومن هذا القبيل خراج المغرب في أيام الاغالبة فقد بلغ خراج الفدان في أيام عباس بن ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً [4] ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من

---

(١) ابن حوقل ١٠٨ (٢) الاصطخري ١٥٧ (٣) المقدسي ٤٥١
(٤) ابن الاثير ١٣٥ ج ٦

أصحاب الارضين وانما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال

وجملة القول ان الخراج كان في العصر العباسي الاول ثقيلاً ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه وقلما شكا النـاس ثقله وربما استطاع العامل ان يجمع الملايين من الدراهم بسهولة في بضعة أيام كما اتفق للمأمون لما مرَّ بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملاً له عليها وقد قلَّ المال مع المأمون فشكا ذلك الى المعتصم فقال « يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة » فجاءه بثلاثين الف الف درهم (٣٠٠٠٠٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف [١]

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأساً من الاشارة الى ما بقي من مصادر الجباية في العصر العباسي الاول تتمة للموضوع — منها :

١ ﴿ اعشار السفن ﴾ هي ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال مبالغ وافرة لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجبى في العصر العباسي ولـكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة في تلك الايام بين العراق وسائر اقطار الدنيـا حتى الهند والصين ان السفن كانت كثيرة واحمالها ثمينة . وقد ذكروا تاجراً واحـداً من تجار البصرة في القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى اقصى بلاد الهنـد والصين بلغ مقدار ما يحصل من ضرائبها ١٠٠٠٠٠ دينار في العام [٢] فاعتبر ذلك وقس عليـه غيره في البصرة وغيرها من ثغور الاسلام وفيها ما يكون اكثر دخله من اعشار السفن . فقد كان ضمان اعشار المراكب في عدن في القرن الرابع ٢٠٠٠٠٠ دينار [٣] وضمانها في القرن السادس ١١٤٠٠٠ دينار [٤] والظاهر ان جباية تلك الاعشار كانت في العصر العباسي اقل مما صارت اليـه بعد ذلك لاننا نرى في جريدة علي بن عيسى التي كتبها للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ان ضرائب المراكب في البصرة بلغت ٢٢٥٧٥ ديناراً وقد

(١) الطبري ١١٤٣ ج ٣ — وفي ابن الاثير وابي الفداء والفخري ان مقـدار ذلك المال ثلاثون الف الف الف درهم (٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠) وهذا خطأ من النساخ

(٢) ابن حوقل (في الذيل) (٣) ابن حوقل ٢٠ (٤) ابن حوقل (في الذيل)

تقدم ان اضعاف ذلك كان يحصل من أحد تجارها بعد قرنين

٢ً (اخماس المعادن) كانت المعادن عندهم ضربين ظاهرة وباطنة فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً كمعادن الكحل والملح والقار والنفط فهذه لا يجوز اقطاعها لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه . وأما المعادن الباطنية فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس مما يخرج منها [١] ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها وهاك امثلة منها ومن أماكن وجودها

كان في خراسان معادن الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنوشادر والزئبق [٢] . وفي ما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق الذي لا يكاثره معدن في الغزارة والكثرة [٣] . وفي بلاد فارس عامة المعادن الفضة والحديد والانك والكبريت والنفط والصفر والزئبق . وبغربي اصبهان معدن الكحل [٤] . وفي كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها اكثر معادن الذهب الفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفر [٥] . ومن هذا القبيل مغاوص المرجان بسواحل افريقيا الشمالية وهو شيء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قارباً أو اكثر وفي كل قارب عشرون رطلا [٦] . وفي سوريا معادن الحديد كانت بجوار بيروت والمغرة الجيدة في حلب وجبال الحمر في مكان آخر ومعدن الرخام في فلسطين ومعدن الكبريت في الاغوار [٧] . وفي مصر معادن الشب بالصعيد وكانت العربان تحضره من معادنه الى ساحل اخميم واسيوط والبهنسا ويحمل منها الى الاسكندرية ايام النيل وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير كل قنطار الى ستة . وكذلك النطرون في البر الغربي للنيل وفي غيره كان يستخرج منه كل سنة ١٠٠٠٠ قنطار وكان يضمن في بعض الاحوال ضماناً تبلغ قيمته ١٥٥٠٠ دينار [٨] . وفي النوبة مما يحاذي اصوان معدن الذهب المشهور ــ قال ابن حوقل « والمعدن ليس من أرض مصر ولكنه في

(١) الماوردي ١٨٧ (٢) المقدسي ٢٢٦ (٣) ابن حوقل ٣٣٧
(٤) الاصطخري ١١٥ و ٢٠٢ (٥) ابن الفقيه ٢٠٦ (٦) ابن حوقل ٥١
(٧) المقدسي ١٨٤ (٨) المقريزي ١٠٩ ج ١

أرض البجة وينتهي الى عيذاب والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهي رمال ورضراض ويجمع تجارهم العلاقي »[١] . وفي بلاد الغرب مما يلي سجلماسة معادن الذهب والفضة وكذلك في ما وراء ذلك الى بلاد السودان[٢] . وكان في صعيد مصر جنوبي النيل (كذا) معدن الزبرجد في برية منقطعة عن العمارة[٣] . وفي البحرين بخليج فارس مغاوص اللؤلؤ وفي صنعاء مناجم العقيق وبين ينبع والمروة معادن الذهب وعلى شواطىء عدن ونحا العنبر[٤]

هـذه أمثلة مما كان في المملكة العباسية من المعادن تمثيلاً لما كان يجبى من اخماسها الى بيت المال . وكانوا يقطعون هـذه المعادن أقطاعاً أو يضمنونها تضميناً بمال معين وقد يكون ذلك المال كثيراً — من امثلة ذلك ان معادن الفيروز في نيسابور بلغت ضماناتها في أواسط القرن الرابع للهجرة ٧٥٨ ٧٢٠ درهماً[٥]

٣ً (الجزية والزكاة) كانت الجزية في صدر الاسلام كثيرة ثم تناقصت بدخول الناس في الاسلام . والزكاة كان لها شأن كبير في أول الاسلام ثم قلّت اهميتها وسيأتي بيان ذلك

٤ً (المكوس والمراصد) وهما تقابلان الكمارك والعوائد في هـذه الايام وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر أو البر مهما يكن نوعها من الانسجة أو المحصولات أو المصنوعات أو الرقيق أو غيره . وكان يحصل لهم من ذلك مالٌ كبير . ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منـه ولكن يظهر انها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان وربما اختلفت في البلد الواحد باختلاف الزمان وفي الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره وانما نأتي بما شاهده شمس الدين المقدسي بنفسه في مصر باواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التي كانت تؤخـذ في تنيس ودمياط قال « واما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي أن ينسج شيئاً منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ولا ان تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليها وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقشر ثم الى من يشدها في السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم

---

(١) ابن حوقل ١٠٧ (٢) المقدسي ٢٣١ (٣) الاصطخري ٥١
(٤) المقدسي ١٠١ (٥) المقدسي ٣٤١

له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة يؤخذ شيء وكل واحد يكتب على السقط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه . ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً قيل قبالة هذا الموضع في كل يوم الف دينار ومثله عدة على سواحل البحر في الصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية ايضاً على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم» [1]

وذكر ابن حوقل انه كان يحصل مما يخرج من اذربيجان الى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدواب واسباب التجارات والابقار والاغنام ١٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة [2]

على ان هذه الضرائب وامثالها لم يكن لها رواج في اوائل الدولة العباسية ولا كانت غلتها تستحق الذكر ولكن دخلها تعاظم في عصر الانحطاط

٥ً (المستغلات وغلة دار الضرب) يراد بالمستغلات ما يجبى لبيت المال من اسواق أو منازل او طواحين ابتناها الناس في ارض تربتها للسلطان فيؤدون عنها اجرة [3] . وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب في مدينة السلام بغداد ١٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة [4] وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسواقها ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة [5]

فالدولة العباسية في ابان زهوها كانت تجبي من هذه الضرائب شيئاً كثيراً ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم

(٤) صدق العمال في ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بني أمية انهم كثيراً ما كانوا يستأثرون بالخراج لانفسهم اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية طعمة له في مقابل نصرته اياه على علي او بحجة الحاجة الى المال في الحروب كما حصل في ايام الحجاج او استرضاء لعامي متمرد التماساً لقعوده [6] او ان يعصى العامل

(١) المقدسي ٢١٣ (٢) ابن حوقل ٣٥٣ (٣) ابن حوقل ٢١٧
(٤) ابن خرذابة ١٢٥ (٥) اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٨
(٦) ابن الاثير ١٤٣ ج ٢

بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق في أيام أخيه يزيد [١] فان يزيداً استحيي أن يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه . ناهيك عما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من أموال الفيء والغنائم وهو من حق بيت المال وقد يذكرونه ويطمعون فيه كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ فانه اصاب مالاً كثيراً بقي منه لبيت المال ٦٠٠٠٠٠٠ درهم كتب عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه [٢] ـ ذلك ونحوه دعا الخلفاء في بعض الاحوال الى ان يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم

أما بنو العباس فقد كان معظم عمالهم في أوائل الدولة من اهلهم الاقربين ثم استعملوا انصارهم الفرس وهم اكثر الناس رغبة في قيام دولتهم . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى لا يقصرون في زيادة رواتبهم حتى بلغت في أيام المأمون ثلاثة ملايين درهم [٣] وهي عمالة الفضل بن سهل على المشرق ولم يدرك مثلها أحد من عمال بني امية . لان اكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٦٠٠٠٠٠ درهم وهي عمالة يزيد ابن عمر بن هبيرة على العراق [٤]

ومما ساعد بني العباس في أوائل دولتهم على حفظ نظام اعمالهم واجماع العمال على ولائهم سداد رأي وزرائهم وخصوصاً البرامكة فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال لانهم كانوا يعدون استيلاء بني العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ اعوام للتخلص من بني امية واحتقارهم اياهم

وهناك أسباب اخرى لكثرة جباية الدولة في ايام المأمون كقلة الحروب والفتن فانها مذهبة للاموال مضيعة للخراج مفسدة للاعمال لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال في الجند

---

(١) ابن الاثير ٤٧ ج ٥ (٢) الطبري ١٣٣٤ و١٣٥٠ ج ٢ (٣) الطبري ٨٤١ ج ٣ (٤) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

أسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن أسباب كثرة الخراج في الدولة العباسية بالقياس على أيام بني أمية وهذه الايام (سنة ١٩٠٣) وهي القسم الاول من أسباب الثروة العباسية فلنأت الى القسم الثاني وهو قلة النفقة وأهم أسبابها ثلاثة :

(١) قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين في مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ويقال بالاجمال انهم أقل عدداً في الحكومات الاستبدادية منهم في الحكومات المقيدة لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شيء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك في المحاكم القضائية ومقدار الفرق بين عدد موظفيها في عهد الاحكام العرفية وبينهم في عهد الاحكام القانونية وقس عليه سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه . ويكفي لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفي الحكومة المصرية قبل نظامها الحالي بعددهم اليوم

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنساويين اليها (في أواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان .

وخلاصة ذلك ان رئيسها الباشا وهو الوالي المرسل من الاستانة يليه ٢٤ بيكاً (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى في القطر وهم :

(١) الكخيا وهو نائب الباشا وكاتب سره

(٢) الدفتردار وهو ينظر في الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا

(٣) امير الخزنة وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر

(٤) امير الحج وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز

(٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية

(٦) خمسة مدراء لاقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية

وهناك أربعة كشاف لاقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم واعمالهم مثل أعمال البكوات مديري الاقاليم الاخرى

ومن المصالح الاخرى القاضي وامين الضربخانة والمحتسب

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهي :

(١) وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني

(٢) وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج

(٣) وجاق الهجانة

(٤) وجاق التفقجية . وهم ناقلو البنادق

(٥) وجاق الانكشارية. وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

(٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » واحدهم « وجاقلي » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجي [١] . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الا بمصادقتهم

هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزي ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ما عدا الجيش) فاذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ او قل ٣٠٠ او ٤٠٠ وهو يقابل في هذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس والسجون وسائر المصالح مما يربو عدد موظفيها على الفين كما يأتي

الموظفون في الحكومة المصرية الان فئتان الفئة الاولى العمال . وهم الذين يتولون اعمالها وادارة شؤونها ومنهم النظار ورؤساء المصالح ورؤساء الاقلام والكتاب والحساب . والفئة الثانية الخدمة ومنهم الفراشون والبوابون ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام [٢]

(١) تاريخ مصر الحديث ٦٧ ج ١

(٢) ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢

عدد موظفي الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد	
١ ١٢١	المعية وتوابعها
١٨	مجلس النظار
٢٦	« الشورى
٢٤	نظارة الخارجية
٤١٩	« المالية
٤٢٤	« المعارف
١٨٦	« الداخلية
٢ ٧٦٠	« الحقانية
٦٢٩	« الاشغال
٣ ٣٠٦	« الحربية
١ ٧١٥	مصالح ادارة الاقليم وماليتها
٦ ٦٤٤	مصلحة البوليس
٥٢٦	« الصحة
١٠٥	« السجون
١٥	« منع الرقيق
٣٦	الدفترخانة
٥١٠	الكمارك
١٨ ٤٦٤	(المجموع)

١٨ ٤٦٤	(مجموع ما قبله)
٢١٨	خفر السواحل
١٤٠	الدخوليات
٤	مصايد الاسماك
١٣	الرسالة
١ ٩٣٨	السكة الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	البوسطة
١٠٣	الفنارات
٦	الليمانات
١٥	التمغة للمصاغات
٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
١١	الكتبخانة الخديوية
٤	الانتكخانة
١٤	المطبعة الاهلية
٩٠	املاك الميري الحرة والمشتركة
٢٢٧	الكومسيون البلدي
٢٢ ٤٥٤	(الجملة)

فجملة موظفي الحكومة المصرية من العمال ٢٢ ٤٥٤ فاذا اخرجنا منهم المصالح ذات الايراد اذ لا دخل لها في ادارة شؤون الحكومة وهي :

عدد	
١ ٩٣٨	السكك الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	مصلحة البوسطة
١٠٣	الفنارات
٦	اللبانات
١٥	قلم التمغة
٢ ٩٦٨	(الجملة)

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيها٥ ٧١ ١ كان المجموع ٣ ٦٨٣ ٤ وباخراجه من العدد الاصلي يبقى ٧٧١ ١٧ وهو عدد موظفي الحكومة في نظارتها ومصالحها ما عدا الجيش . فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد وبين ما كان عليه في أيام المماليك وقس عليه عدد موظفي الحكومة في الدولة العباسية

على ان ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية صفحة ٦٤ فانك ترى معظم اصحاب الرواتب هناك من الجند وخدمة البلاط والحرس الخاص والغلمان والحشم والفراشين واصحاب الصيد ونحوهم وليس من عمال الحكومة الحقيقيين الاّ جزءاً صغيراً وهم المعبر عنهم صفحة ٦٦ « باكابر الكتاب واصحاب الدواوين والخزان والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان (الوزير) واسحق بن ابراهيم القاضي والفرسان ونفقات السجون والعلوفة » ونحو ذلك . ولا تظن نفقات الحكومة على مصالحها الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال (اي ٠٠٠ ١٢٥٠ دينار) مع ان نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٠٠٠ ٢٥٠ ٣ جنيه . وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزء صغير . واما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم

على ان السبب في قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ولكن هنالك سبباً آخر ذا بال اعني تسديد ارزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل في باب الوارد . فقد رأيت صفحة ٦٦ ان ارزاق اكابر

الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان الخ ٢/٣ ١٥٦ دينار في اليوم غير أن هؤلاء ليسوا كل موظفي الدواوين بل هم الكبراء فقط . ويتضح ذلك من قوله هناك « سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم واعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوفرون من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم » ويدل ذلك أيضاً على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه في هذه الايام اصغر الباعة اذا اراد ضبط حسابه فضلاً عن دوائر الحكومة . فان أموال الساقطين وغرم المخلين كان يجب ان تدون في ابواب الوارد وتدون رواتب أولئك الموظفين في باب النفقات . وعلى اننا نستبعد ان لا يكون لهذه القيود محل في دفاتر الحكومة العباسية وأنها اسقطت من هذه القائمة حباً بالاختصار او لاسباب اخرى

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

من ادران التمدن الحديث انغماس الحكومات الاوربية في الديون وما من دولة الا وهي مديونة بمال لا بدَّ لها من تأدية فوائده أو تسديد بعضه من دخلها كل عام . فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلها مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية او أنها كانت خفيفة جدًّا . فقد تقدم صفحة ٦٩ ان دخل انكلترا ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه يجتمع نحو اربعة اخماسها من ضرائب اكثرها حديثة العهد وان نفقات الدولة تستغرقها كلها . فمن اسباب ذلك ان ربع هذا الدخل تقريباً يذهب في وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون . ولولا ذلك لبقي في خزينة الحكومة الانكليزية كل عام حوالي ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه أي نحو ثروة الدولة العباسية كلها . وليست انكلترا وحدها غارقة في الديون فان معظم دول اوربا مثلها وان تفاوتت ديونها — وهاك ديون اشهر دول العالم في آخر القرن التاسع عشر بقطع النظر عن كسور المليون وقد رتبناها في الجدول الآتي باعتبار الاكثرية

ديون اشهر دول العالم [1]

جنيه		جنيه	
١ ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	فرنسا	٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)
٧٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	انكلترا	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	المانيا
٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	روسيا	٩٣ ٠٠٠ ٠٠٠	هولندا
٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	الولايات المتحدة	٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠	الصين
١٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	الدولة العثمانية	٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠	اليابان
١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	النمسا	٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ايطاليا
١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠	مصر	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	اسبانيا
٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	٣ ٠٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠	(الجملة)

وقد تراكمت هذه الديون على تلك الدول بتوالي الاجيال بما احتاجت اليه من النفقة في الحروب أو في انشاء المشروعات الكبرى أو نحو ذلك مما لم تكن الدولة العباسية في غنى عنه ولكنها كانت في أيام زهوها تنفق مما تدخره من فضلات الجباية كما تقدم . فلما قلت الجباية وكثرت اسباب النفقة في طور الانحطاط ولم يبق في بيت مالها ما تنفقه في الحروب عمدت الى استخراج الاموال من أهل الثروة وخصوصاً من كبار موظفيها كالوزراء والعمال والكتاب الذين انما أثروا من مالها بالاختلاس ونحوه وسموا ذلك مصادرة كما سيأتي

على ان الدولة العباسية كانت في بعض الاحوال تستلف من بعض التجار أموالاً في مقابل أوراق لم يحل اجلها واكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود وهم اقدر الناس على المراباة كما لا يخفى — وبلغ مقدار الربا الذي كانوا يأخذونه على تلك السلفيات نحو ٢٠ في المئة فقد كان علي بن عيسى وزير المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجه استلف من التجار على سفاتج وردت من الاطراف ولم تحل بعد . وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دانق ونصف على كل دينار في الشهر فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها في الشهر ٢٥٠٠ درهم . واشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود في بغداد

(١) Statesman's year book

رجل كان يعرف بيوسف بن فنحاس وهو من تجار الاهواز أيضاً وآخر اسمه هروز ابن عمران أو من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة [١] — غير ان ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلي الشائع في هذه الايام

(٣) اقتصاد الخلفاء الأولين وتدبيرهم

من الامور المقررة في التاريخ السياسي ان مؤسسي الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ولولا ذلك لم يتأت لهم انشاء الدول أو تثبيت دعائمها ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة . والصبوة تدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبها كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة ـ فالدولة العباسية نشأت في حجر السفاح طفلة فتناولها المنصور صبية فغذاها وأنماها حتى أدركت شبابها في أيام الرشيد والمأمون ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم في أيام الخلفاء التابعين

توفي السفاح وقد ملك أربع سنوات ولم يخلف سوى بعض الثياب [٢] ولو كان طماعاً لجمع مالاً كثيراً لكثرة ما وقع له من غنائم بني أمية فضلاً عن الجبايات وغيرها

وخلفه المنصور فتولاها بضعاً وعشرين سنة أذخر في أثنائها نحو ٨١٠٠٠٠٠٠٠ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متهماً بالبخل ولم يكن بخيلاً ولكنه كان لا يضع الكرم في غير موضعه ـ لم يكن يبذل المال الا اذا رأى في بذله منفعة في تأييد دولته. وفضل المنصور في تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب في تأييد الاسلام ـ يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما أوصى به ابنه المهدي عند وفاته . من ذلك قوله « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث .. واياك ان تدخل النساء في أمرك واياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الاطراف وأمن السبل العامة وادخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم واعد الاموال واخزنها فان النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان

(١) Ein. Abb. 63 (٢) ابن الاثير ٢١٩ ج ٥

واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فيتدارك عليك الامور وتضيع . . . . واعد رجالاً في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ورجالاً في النهار لمعرفة ما يكون في الليل وباشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن وأسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ » (١)

قضى المنصور مدة خلافته ولم ير في داره لهو ولا شيء يشبه اللهو أو اللعب أو العبث الا مرة وكان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حماداً التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور قد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فعاد حماد وأخبر المنصور فقال « وأي شيء هو الطنبور » فوصفه له فقال « وما يدريك أنت ما الطنبور » فقال « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأينه تفرقن خوفاً منه فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور وأخرج الخادم فباعه

وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس فيرتدي بجبة هروية ويرقع قميصه واذا استجداه أحد بخل الا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله أحدهم درهماً فلا يعطيه ويعطي الا خر الفاً بلا سؤال . من أمثلة ذلك ان أحد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيراً فسأله المنصور « ما عيالك » قال « ثلاث بنات والمرأة خادم لهن » فقال له « أنت أيسر العرب . أربع مغازل يدرن في بيتك » ولم يعطه شيئاً . ولما توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم « خلف الف دينار أنفقته امرأته على مأتمه » فقال « كم خلف من البنات » . قال « ستاً » فأطرق المنصور ثم أمر لكل من البنات بثلاثين الف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠ درهم (٢)

ولما توفي المنصور خلفه ابنه المهدي وكان شبيهاً بأبيه من عدة وجوه ومن جملتها النظر في دقائق الامور . وفي أيامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يسار (٣) وكان يجلس للمظالم بنفسه وكان تقياً ورعاً ولكنه لم يكن في مثل ما كان عليه أبوه من الاقتصاد . وتولى بعده الهادي زمناً قصيراً ثم الرشيد وكان تدبير المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل برمك وقد اتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة أهل كرم وسخاء فزادوا

(١) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) الفخري ١٦٣

الخلفاء كرماً وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صغرهم كما فعل يحيي البرمكي بالرشيد وكان يسايره يوماً فقام رجل فقال « يا أمير المؤمنين عطبت دابتي » فقال الرشيد « يعطى خمسمائة درهم » فغمزه يحيي . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيي « يا أبتاه أومأت اليَّ بشيء وقت ما أمرت بالدراهم فما هو » فقال « مثلك لا يجري هذا المقدار على لسانه أنما يذكر مثلك خمسة آلاف الف وعشرة آلاف الف » قال « فاذا سئلت مثل هذا كيف أقول » فقال « تقول يشترى له دابة يفعل به فعل نظرائه » [1]

وكان الرشيد ميالاً للجود من فطرته فنشطه ذلك حتى صار الى أبعد مما أرادوه واضطروا الى ايقافه عند حده [2] . وأوغل الخلفاء بعد ذلك في البذخ والاسراف وهما من أسباب سقوط دولتهم على ما سيجيء

وجملة القول ان أسباب الثروة العباسية كثرة الدخل وقلة النفقة . وأسباب كثرة الدخل (١) سعة المملكة (٢) اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرهم (٣) ثقل الخراج المضروب على الأرض (٤) صدق العمال في ارسال المال المجموع الى بغداد . وأسباب قلة النفقة (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين (٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

(١) سير الملوك ٧٨ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

ثروة الدولة العباسية

في عصر الانحطاط

تمهيد — في أسباب ذلك الانحطاط

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة . فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر . ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة كما بلغت الدولة الاموية في الشام شبابها في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . والدولة الاموية بالاندلس بلغت شبابها في أيام الخليفة الناصري وابنه الحكم . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في أيام السلطان سليمان . وقس عليه . وقد قسم ابن خلدون أيام الدولة الى خمسة أطوار (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ والدعة (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير [١] . وهو تقسيم اجمالي ربما لا ينطبق على أحوال الدول انطباقاً تاماً الا بالتأويل . وأما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية في عصر الانحطاط ان نذكر أسباب ذلك الانحطاط مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

﴿ العرب والفرس ﴾ علمت مما تقدم ان الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً أهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها الا انتقاماً لانفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين . فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم . فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظر الحاذر المراقب ولا حيلة لهم في ارجاع نفوذهم . وبلغ الفرس ارفع المنازل عند العباسيين في أيام البرامكة فزاد حقد العرب عليهم وسعوا في اسقاطهم رغم ما كان من جود البرامكة وكرم أخلاقهم — ولعلهم كانوا يبالغون

---

(١) ابن خلدون ١٤٧ ج ١

في السخاء دفاعاً عن مركزهم . على انهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع في الملك حتى نكبهم الرشيد . ومن أشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربياً ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان [1]

فلما نكب البرامكة ظن العرب انهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم مات الرشيد واختلف ابناء الامين والمأمون على الخلافة والامين عربي الابوين لان أمه زبيدة حفيدة المنصور . فاخذ أهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب (الحربية) . وأما المأمون فامه فارسية وكان في خراسان بين أخواله وشيعته [2] فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده وانتهى الخلاف بمقتل الامين وفوز المأمون فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتهان العرب . فعظم ذلك على هؤلاء وخصوصاً لما تولى الحسن بن سهل وهو فارسي مجوسي الاصل حديث العهد في الاسلام فطعنوا في اسلامه وقالوا « لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي » وتمردوا على الحكومة ولكنهم عادوا الى السكينة قهراً [3] وجاء المأمون الى بغداد واستتب الامر له ولنصرائه واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجره ذلك الى القول بان القرآن مخلوق فازداد العرب كرهاً له ولكنهم لم يستطيعوا رده

(الاتراك) فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المعتصم بالله وكانت أمه تركية الاصل من بلاد السغد في تركستان [4] فشب محباً للاتراك وكان قد اصبح لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الامين وهي أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم اياه العباسيون من الاذلال . وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم — فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ما وراء النهر وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفي جملتها صبيان الاتراك والفراغنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم . فاقتنى منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر الفاً [5]

(١) ابن خلكان ٤١٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ٩٢ ج ٦ (٣) ابن الاثير ١٢٩ ج ٦
(٤) ابن الاثير ٢١٥ ج ٦ (٥) القرماني ١٥٧

فضاقت بهم بغـداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم فابتنى لهم مدينة سامراً واقامهم فيها [١] وأطلق لهم الارزاق وجنـد منهم الجنود . ولا ريب أنهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه والفوز في حروبه ضد اعدائه من الروم والترك ولـكنهم كانوا من الجهة الاخرى سبيلاً الى تقهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الاموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالهـا وخلفاؤها عرضة لاغراضهم

وكان المأمون عالماً حكيماً وكل بطانته وجلسائه من أهل الحـكمة والعلم وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقته ودعته — قال يحيي بن اكثم : ماشيتُ المأمون يوماً من الايام في بستان مؤنسة بنت المهـدي فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع اردت أن ادور الى الجانب الذي يستره من الشمس فقال « لا تفعل ولـكن كن بحالك حتى استرك كما سترتني » فقلت « يا امير المؤمنين لو قدرت ان اقيك حر النـار لفعلت فـكيف الشمس » فقال « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى ساتراً لي من الشمس كما سترته [١]

وقال يحيي ايضاً « كنت نائماً عنـد المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وانا نائم فينغص عليَّ نومي فرأيتـه وقد قام يمشي على اطراف اصابعه حتى أتى موضع المـاء وبينه وبين المـكان الذي فيه الـكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فاخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع يمشي على أطراف اصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار الى فراشه »

وبالغ المأمون بملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر « كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول « ما ينبغي للغلام ان يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح ياغلام ياغلام الى كم ياغلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أن يأمرني بضرب عنقه ثم نظر اليَّ فقال : يا عبد الله ان الرجل اذا حسنت اخلاقه ساءت اخلاق خدمه واذا ساءت

---

(١) اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٢ (٢) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١

اخلاقه حسنت اخلاق خدمه وانا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن اخلاق خدمنا » [١]

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . تخلفه المعتصم وكان عارياً من العلم يقرأ قراءة ضعيفة [٢] وكان غضوباً شديد النقمة [٣] منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة [٤] وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات [٥] . فرأى رجال الدولة فرقاً بعيداً بينه وبين أخيه فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة في أتراكه وفراغته . وكان مع ذلك على رأي اخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة في تأييده حتى انه أحضر احمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب الى القول بخلقه فامر به فجلد جلداً أعظاماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً [٦] فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكترث بذلك وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد في الاسلام وفي التمدن الاسلامي لأنهم جاؤوا من بلاد كانت لا تزال في عهد الجاهلية وكانوا حجر عثرة في طريق ذلك التمدن ففسدت النيات واضطربت الاحوال وابتدأت الدولة بالتقهقر من ذلك الحين

« المال » وكانت غاية المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب . فلما طلب الامويون الخلافة احتاجوا الى المال فبذلوا كل وسيلة في سبيل جمعه وقات الرغبة في تأييد قواعد الدين ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احتقارهم سائر الامم . فكان مطمح انظارهم « العرب والمال » فلما تولى العباسيون أهملوا أمر العرب واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق وانصرفوا في أيام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين في المدنية قبل الفتح الاسلامي وفيهم استعداد فطري للتمدن فضلاً عن ان تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لان مركز الخلافة فيها . فاخلصوا الخدمة فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ففاضت الاموال في خزائن الخلفاء ورجال

(١) المستطرف ٩٦ ج١ (٢) القرماني ١٥٥ (٣) ابو الفداء ٢٧ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٢١٦ ج ٢ (٥) الفخري ٢٠٩ (٦) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ .

دولتهم فاسرفوا وبذخوا وانغمسوا في الرخاء والرغد والترف حتى بلغوا قمة المجد في أيام الرشيد والمأمون . فلما كانت أيام المعتصم واستكثر من المماليك الاتراك كما تقدم واستخدمهم في مصالح الدولة انحصرت غاية رجال الدولة في اختزان الاموال لانفسهم ولو آل ذلك الى خراب البلاد لانها ليست بلادهم ولا أهلها اهلهم . وانما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم [1] وضعف الخلفاء عن رد شكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالاموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء في اصلاح شؤونهم واستبقاء سلطانهم الى الجند والجند يتطلبون الاموال والاموال عند الوزراء والعمال والكتاب فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أي اخذ اموالهم بالقوة . والمصادرة تحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملاً الا بالمال

فاصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم.وامحت الحمية القرشية التي قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير أن يخالف اباه مصعباً في أثناء محاربته عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياء من قريش — وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبد الله في الخلافة فجاءه محمد ابن مروان فبذل له الامان اذا سلم فابى ولكنه حرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فاجابه الغلام « لا تحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت بنفسي عنك » فقال له مصعب « اذهب أنت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » فقال الغلام « لا اخبر عنك قريشاً ابداً ولكن يا أبتي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب « لا تحدث قريش اني فررت » ثم قال لابنه «تقدم اني احتسبك» فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً [2]

ثم أن ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر . فلما كانت الدولة العباسية في ابان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ثم أخذت بالتقهقر بغتة من أيام المعتصم — ويتضح ذلك جلياً من مقابلة مجاميع

(١) ابن الاثير ٢٠٩ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٥٩ ج ٤

القوائم الثلاث المتقدم ذكرها وأقدمها اكثرها وهي :

١	قائمة ابن خلدون	من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ	ارتفاعها	٣٩٦ ١٥٥ ٠٠٠ درهم
٢	« قدامة	حوالي «	٢٢٥ «	٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠ «
٣	« ابن خرداذبه	« «	٢٥٠ «	٢٩٩ ٢٥٦ ٣٤٠ «

فترى ان ارتفاع الدولة كان في أول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ما عدا الاموال والغلات . ثم صار في الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ثم صار في أواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدريج في النقص الى اواخر ايام الدولة . على أننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحاً في كل العصور لقلة المصادر التي بلغت الينا في هذا الشأن اما لعدم عناية الحكومة في تدوين الميزانيات المضبوطة أو لضياعها في اثناء الفتن الاهلية وغيرها

مقدار الجباية في عصر الانحطاط

واذا نظرنا في ما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالي الاعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على أنهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً خلفه من يسرف فيضيعه . ومن أمثالهم المأثورة ان ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد انفقه الامين (سنة ١٩٣ ــ ١٩٨) وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق انفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ ــ ٢٤٧) وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي انفقه المقتدر (سنة ٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ)

اما مقدار الجباية في العام فلم نتوفق الى تفصيلها الا في أيام المقتدر اذ اضطر وزيره علي بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز أن يرفع تقريراً بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى أظهرها البارون فون كريمر ونشرها في كتاب سماه جباية الدولة العباسية [١] لسنة ٣٠٦ وصدره بمقدمة المانية ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة وما

(١) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر — كما قرأها فون كريمر

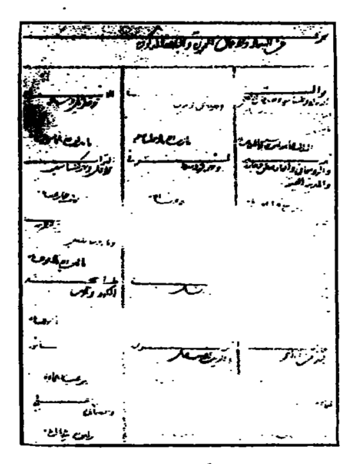
١ — جباية السواد

حرف عن السواد والاعمال المعموزة والبلاد المذكورة

دينار	
١ ٥٤٧ ٧٣٤	اموال السواد وطساسيجه وصدقات اراضي المغرب بالبصرة والمراكب بها وسائر ما ينسب اليها ويجري معها
(تفصيلها)	
•	باذوريا وكلواذي ونهر بين ٢٨٣ ١٦٦ درهم
١٩٨ ٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥ ٥٧٦	بهرسير والرومقان وايغار يقطين وجازر والمدينة العتيقة
٢٥ ٠٠٠	كوثى ونهر درقيط
٩ ٥٢٦	الزاب الاعلى ونهر كشتاسب
١٦ ٧٥٦	الفلوجة العليا والازحاء
١٣ ٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠ ٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى
٣٨ ٣٥٠	نهر الملك ومورجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات
٤٦ ٣٣٦	باروسما الاسفل
١١٠ ١٥٤	طساسجة الكوفة والحزن
٥٠ ٢١٩	العمارات بسر من رأى
٢٠ ٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٢٤ ٣٠٠	بزرجسابور
٣٠ ٠٣٥	الراذانان
١٣ ٦٦٦	روستقباد
٤٦ ٤٨٠	النهروان الاعلى وسمنطاي
٨٥٩ ١٢٥	(المجموع)

عاناه في قراءتها لانهـا مكتوبة بخط عربي غير مألوف كما ترى في الشكل . وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفي بذكرها كما قرأها هو

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام : الاول في جباية السواد وملحقاته . والثاني في جباية المشرق أي البلاد الواقعة شرقي السواد . والثالث جباية المغرب أي البلاد الواقعة غربي السواد . والرابع جباية الاموال الخاصة والموقوفة



صورة الصفحة الاولى من قائمة جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

التي قرأها البارون فون كريمر

(انظر تفصيل قراءتها في ما يلي)

٨٥٩ ١٢٥	(مجموع ما قبله)
٤٠ ٣٢٧	النهروان الاوسط
٦٠ ٥٣٢	النهروان الاسفل
١٥٩ ٠٨٩	الصلح والمنازل
٤٢ ٤٩٩	بادرايا وباكسايا
٣١٠ ٧٢٠	واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقات الراتبة
١٢١ ٠٩٥	البصرة وكور دجلة
٢٢ ٥٧٥	المراكب بالبصرة
٤٢ ٧٥٠	أموال الضمانات وما يؤدي عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات
٨٠ ٢٥٠	العبارة بهيت
١٦ ٩٧٥	أسواق الغنم بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
٦٠ ٣٧٠	دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
١٦ ٠٠٠	الجوالي بمدينة السلام
١٣ ٨٧٤	ما يؤدي الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات
١ ٨٤٦ ١٨١	(المجموع) [1]

٢ — جباية المشرق

١ ٢٦٠ ٩٢٢	كور الاهواز ضماناً على ابراهيم بن عبد الله المسبع وغيره
١ ٦٣٤ ٥٢٠	أموال فارس مع ما يسوغه مونس الخادم مع ما في أيدي أصحاب الاطراف مما أورد نفلاً (هبة) فقط
٢٥٨ ٠٤٠	ضياع الامراء بهذه النواحي مع مال المراكب بسيراف
٣٦٤ ٣٨٠	كرمان مع ضياع الامراء سوى مال العهد والورح وقرى المفازة وما يسوغه مونس الخادم عن مال الخزن والجهبذة (الصيرفة)
٨٠ ٠٠٠	مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضر
٣ ٥٩٧ ٨٦٢	(المجموع)

(١) ترى فرقاً بين هذا المجموع والمجمل المذكور في أول القائمة لعل سببه خطأ في قراءة الاعداد في الاصل وسنعتمد على المجمل الاول

٣ ٥٩٧ ٨٦٢ (مجموع ما قبله)

ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد
والارتفاع بالامانة والضمانة ٥٢٥ ٥٧٠ ١

	٤٦٥ ٠٧٨	الخراج والاعشار والاخماس بالري والدماوند مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان واحمد بن علي
	١٢٢ ٦٤٤	الضياع بها
		قزوين وزنجان وابهر
	١١٥ ٧١٠	الخراج
	٥٨ ٢٩٠	الضياع
		قم
	١٩٧ ٢٢٩	الخراج
	٨٠ ٢٢٩	الضياع
		أصفهان
	٤١٠ ١٧٨	الخراج على العقد المجددة مع خراج الاكراد وما يغل من الايغار وضياع السلطان
	١٨٩ ٣٣٤	الضياع بها
		ماه البصرة والايغارين
	١٨٥ ٦٣٦	الخراج
	٢٦٧ ٥٢٠	الضياع
		همدان
	١٥٠ ٤٨٠	الخراج
	٥٥ ٧٨٩	الضياع
		ماسبذان
	٥٧ ٧٤٦	الخراج
	١٦ ٧٥٠	الضياع
٢ ٣٩٠ ٢٣٨	١٧ ٦٢٥	ساوة ودار الضرب بها

٥ ٩٨٨ ١٠٠ (المجموع)

١٠٠ ٩٨٨ ٥ (مجموع ما قبله)

١٠٥ ٦٧٨ } ماء الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم ١

٨٩ ٥٠٠ الضياع بها

٢٢٥ ١٩٣ ٣٠ ٠١٥ حلوان عن الخراج والضياع

٢٢٦ ٣٧٠ آذربيجان وأرمينية على المعارفة التي فورق عليها سبيل السعر

٦٦٣ ٤٣٩ ٦ (المجموع)

٣ — جباية المغرب

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب واجناده بعد الاحتسابات التي وضعها العمال من أصول الارتفاع كما هو جار في العادات وسوى مقاطعة وثمن أجناس الغنائم معما فورق أهل (جزيرة قبرس) على ادائه في كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة

يكون

ما يتعلق بالمغرب واجناده

٤ ٧٤٦ ٤٩٢

تفصيله

٢٩٠ ٧٧٣ مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة

١ ٠٨٠ ٠٠ } وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة وأثمان الغنائم

جند فلسطين بعد الاحتسابات

٨٠ ٧٥٠ مال

٢٣٠ ٦٤٧

جند الاردن بعد الاحتسابات

٤٠ ٤٦٠ مال

٦٣٠ ٧٢٢ ١ (المجموع)

١ ٧٢٢ ٦٣٠ (مجموع ما قبله)

١٠٢ ٠٦٢

جند دمشق بعد الاحتسابات

١١٣ ٠٥٨ مال

٣١٥٣٠٠

جند حمص بعد الاحتسابات

٢٠٠ ٤٦٠ مال

٩١٥ ١١٤

جند قنسرين والعواصم بعد الاحتسابات

١٣٣ ٠٩٧ مال

٣٥٢ ٥٧٠

١٥ ٧٦٥ دلوك ورعبان

٥٢ ٩٨٥ الثغور الشامية سوى صلح (اي ماصولح عليه) احمد بن الحسين الكاتب

٥ ٣٩٧ شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع (اي بعد الذي وضع منه اي اسقط)

مال

٦٥ ٣٣٢

سميساط وملطية بعد الاحتسابات

١٤ ٥٠١ مال

٣٤ ١٢٠

آمد سوى ما جمع في اقطاع وكاسه وبعد الاحتسابات

٥ ٤٧٨ مال

٨٢ ٤٢٢

ارزان وميافارقين بعد الاحتسابات

٥٦ ٧٥٠ مال

٨٢ ٤٢٢

٣ ٤٦٨ ٤٦٢ (المجموع)

٣ ٤٦٨ ٤٦٢ (مجموع ما قبله)

ديار مضر

٢٥٧ ٢٢٥

ديار ربيعة بعد الاحتسابات

٢٢ ٧٩٧ مال

٣٠٤ ٠٩٣

الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبلية بعد الاحتسابات

١٧ ٧٥٠ مال

٤٩٢ ٤٣٠

٩٦ ٥٨٤ طريق الفرات

٤ ٦٥٩ ٣٤١ (المجموع) [١]

٤ — جباية الاموال الخاصة

يكون اموال الاعمال المسماة واموال الخاصة
والاموال الموقوفة وغير ذلك

٢٨٩ ٠٣٦ الضياع المستحدثة بعد الذي جرى في ضمان واسطاسوة حال الخاصة

٥١٦ ٤٤٧ { اموال الخاصة سوى ما كان منها بنواحي واسط فانه اضيف الى اموال العامة وخلط بها ودخل في حمولها ونفقاتها }

٤١١ ١٨٥ العبر (املاك الشواطيء اي الاملاك على السواحل)

١٢٠ ١١٦ الاهوار (المستنقعات)

٧٢ ٦٦٦ المشرق

١٠٤ ٠٠٠ المغرب

١٨ ٧٧٨ هيت واعمالها سوى ضياع السكر

٨ ٢٤٠ العبر ٥٨ ٤٥٠ المغرب

٥ ٢٦٢ الاهوار ٦٢ ٢٠٠ المشرق

٨٢٤ ٢٦١ (المجموع)

---

(١) ترى فرقاً بين هذا المجموع والمجموع المذكور في اعلاه وسنعتمد على ذلك

٢٦١ ٨٢٤ (مجموع ما قبله)

١٤٤ ٧٦٠ مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحي واسط

١٤ ٧٣٢ العبر

١٤ ٢٤٦ الاهوار

٣٠ ٦٧٢ المشرق

٧٥ ١١٦ المغرب

٤ ٥٧٠ مال الموقوف للمساجد سوى ما كان منها بواسط

٢٢ ٨٦٩ الشرق

١٢ ٧٦٠ المغرب

٦١٧ ١٢٦ مال الضياع الفراتية

١٧٠ ٣٢٦ العبر

١٢٩ ٧٢٤ الاهوار

٩٧ ٣٣٦ فارس

٩٥ ٢٧٨ المشرق

١١٤ ٢٢٥ المغرب

١٠٠ ٣١٨ مال الضياع المفردة في سنة ثلث وثلثمائة

٧٦ ٩٨٠ مال الخزن والجهبذة سوى ما يجمعه العمال مع اصول الاموال وسوى ماسوغه مونس الخادم منها بفارس وسوى مادخل منها في ضمان واسط

١ ٧٦٨ ٠١٥ (المجموع)

الخلاصة

١ ٥٤٧ ٧٣٤	جباية السواد
٦ ٤٣٩ ٦٦٣	« المشرق
٤ ٧٤٦ ٤٩٢	« المغرب
١ ٧٦٨ ٠١٥	« الاموال الخاصة
١٤ ٥٠١ ٩٠٤	دنانير

نسبة هذه الجباية الى ما كانت عليه في العصر العباسي الاول

فجموع هذه الجباية أكثر من ١٤ مليوناً ونصف مليون من الدنانير واذا تحولت الى دراهم بلغت نحو جباية العصر العباسي الأول . غير ان الحال في هذه الجباية غير ما كانت عليه في ذلك العصر . لان هذا المجموع لم يف بالنفقات اللازمة للدولة . وكانت النفقات قد تضاعفت لأسباب سيأتي بيانها . من أدلة ذلك ما جاء في عنوان السير عن نفقات الدولة على عهد علي بن عيسى وقد ذكرها المؤلف المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهي :

دينار	
٣١٥ ٤٢٦ ½	نفقات الحرمين وطريقهما
٤٩١ ٤٥٦	« الثغور
٥٦ ٥٦٩	رواتب القضاة في الممالك
٣٤ ٤٣٩	رواتب ولاة الحسبة والمظالم في جميع البلاد
٧٩ ٤٠٢	« أصحاب البريد
٩٧٧ ٢٩٢ ½	

وكل هـذه الابواب لم يكن لها ذكر في قائمة المعتضد — ناهيك بزيادة الجند وغيره من أسباب النفقة بحيث زاد الخراج على الدخل في أيام علي المذكور ٢٠٨٩٨٩٤ ديناراً [١]

وقس على ذلك أحوال بيت المال قبل المقتدر وبعده مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال . ولـكن يقال بالاجمال ان الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا مايفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية الا في أحوال خصوصية وبمبالغ صـغيرة فالمعتصم ترك في بيت ماله ٨٠٠٠٠٠٠ درهم [٢] والمستعين (سنة ٢٥١) خلف في بيت المال ٥٠٠٠٠٠ دينار [٣] والمـكتفي (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ١٥٠٠٠٠٠٠ دينار والظاهر أنها اجتمعت بتوالي الخلفاء فلما تولى المقتدر أنفقها كلها وأنفق ماجمعه

(١) عنوان السير نقله كريمر في كتاب Ein. Abbasiden

(٢) الفخري ٢٠٩ (٣) الطبري ١٥٤٥ ج ٣

في أيامه من أموال المصادرة فضلاً عن الخراج [1] حتى قدروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و ٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار [2] ما عدا نفقات الدولة واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة ان يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب [3] . وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ انه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع ٤٠٠٠٠٠ درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد [4] . وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت في أيام الراضي بالله سنة ٣٢٢ وخرجت قيادة الامور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة [5]

ولانحطاط الثروة العباسية أسباب توضح كثيراً مما جاء في جريدة علي بن عيسى من أسماء بعض الضرائب غير المألوفة

(١) ابن الاثير ٤ ج ٨
(٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ (٣) صلة تاريخ الطبري ١٤٤
(٤) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ (٥) الفخري ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨

اسباب انحطاط الثروة العباسية

في العصر العباسي الثاني

قلنا في بحثنا عن الثروة العباسية في العصر العباسي الاول وعلة كثرتها ان أسباب تلك الثروة كثرة الجباية وقلة النفقة وفصلنا ذلك تفصيلاً . فأسباب قلة الثروة يجب ان تكون قلة الجباية وكثرة النفقة ولكل من هذين البابين فروع لكل منها أسباب هاك تفصيلها :

أسباب قلة الجباية

(١) ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها في أيام الرشيد والمأمون ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . وأول ما استقل من الولايات العباسية افريقية بدأت بالاستقلال في أيام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان في أيام المأمون ثم مصر في أيام المعتمد في أواسط القرن الثالث للهجرة ثم فارس وما وراء النهر وغيرها. ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسماً كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين [1] . على ان معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي اليه الاموال بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية أو غير ذلك . وكان أكثرهم لا يؤدي ما عليه الا مرة كل بضعة أعوام . وطبيعي ان تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية

---

(١) راجع الجزء الاول صفحة ٨٤ (طبعة ثانية)

(٢) تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية في أيام زهوها ثقل الضرائب وخصوصاً في العراق اذ كانت مقاسمة على النصف الى أيام المأمون . فأدرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج ورأى الثروة فائضة في بيت ماله والاموال متوفرة فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين [١] أي انه أنقصه عشرين في المئة وهو اسقاط عظيم وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً اذ كان في قائمة قدامة ١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠ درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبه ٧٨ ٣١٩ ٣٤٠ درهماً لان الأول قدّره على ما يظهر باعتبار النصف والثاني باعتبار الخمسين

واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ أعشار السفن [٢] وقد رأيت انها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شيء كثير. واقتدى بالواثق خلفه المتوكل فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج في النوروز وهو يقع عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) وكانوا يكبسون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة أسقطوا شهراً فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من ايار (مايو) ولا يعيدون النوروز أو يطالبون بالخراج الا بعد شهر أي حتى يأتي الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب في جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون وكان ذلك في ولاية خالد القسري على العراق فأراد الفرس ان يسقطوا شهراً على جاري عادتهم فنهاهم خالد وقال « هذا من النسيء الذي نهى الله عنه » واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس . فظل الحساب الجاري متقدماً شهراً عن الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيي بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك فأراد يحيى ان يجيب طلبتهم فتقوّل أعداؤه في ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالي الاعوام حتى صار في أيام

---

(١) الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣

(٢) الطبري ١٣٦٣ ج ٣

المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع أخضر . واتفق ان المتوكل مرَّ ببستان فرأى الزرع أخضر فقال لرفيق له « ما لي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج » فقصَّ عليه السبب فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النوروز في الوقت اللازم . فأصدر أمره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس [١] لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحتري في ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهـ ـد الذي كان سنه ازدشير

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لانه قتل بعد قليل واضطربت أحوال الخلافة حتى اذا كانت أيام المعتضد بالله روجع في ذلك فاصدر أمره آخر سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوماً وكان قد وافق اوائل المحرم سنة ٢٨٢ فامر أن يكون في ١٣ ربيع أول منها . وجعلوه موافقاً ١١ حزيران (يونيو) وان يكبس بعد ذلك في كل أربع سنين من سني الفرس يوم واحد ـ [٢] فعل ذلك ترفيهاً للناس ورفقاً بهم [٣]

وكان المهتدي (٢٥٥ هـ) قد امر باسقاط الكسور عما بقي من الزرع على المساحة ـ وذلك ان المنصور لما جعل خراج العراق مقاسمة كما تقدم ابقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة وكان ينكسر على اصحابه شيء كل عام والحكومة تطالب به . فلما تولى المهتدي أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن امثالها ومقدار ذلك نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة [٤]

فترى من مجمل ذلك ان موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه في عصر الرشيد والمأمون وكان ذلك مساعداً على تقليل الجباية

﴿ الجزية والزكاة ﴾ ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول الناس في الاسلام بتوالي الاعوام حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينة السلام في أواسط القرن الثالث للهجرة الى ١٣٠٠٠٠ درهم [٥] وقد رأيت في قائمة علي ابن عيسى أنهم جبوها ١٦٠٠٠ دينار أي نحو ضعفي ما ذكره ابن خرداذبة ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على أوسط قيمتها وهي ٢٤ درهماً على الشخص كان عدد

(١) البيروني ٣١ (٢) المقريزي ١٧٣ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٧٦ ج ٧
(٤) الماوردي ٧٧ (٥) ابن خرداذبة ١٢٥

الرجال نحو ٩٠٠٠ وباضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لا يزيد عددهم على ٤٠٠٠٠ نفس من أهل الذمة في مدينة بغداد من النصارى واليهود وهي في ابان مجدها وسكانها يزيدون على المليون . فقس على ذلك سائر المدن

ويقال نحو ذلك ايضاً في الزكاة فقد تناقصت بتوالي الاعوام حتى كادت تتلاشى واصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر [١] وكانت قد ابطلت في مصر حتى أعادها السلطان صلاح الدين الايوبي . وتذمر المسلمون منها وشنعوا على الذي يطالب بها حتى اذا تولى المنصور قلاون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر [٢]

(٣) استئثار العمال بالجباية

قد رأيت استبداد العمال في عصر بني أمية واستئثارهم بالخراج وكيف تحسنت أحوالهم في عصر العباسيين . غير ان ذلك التحسين لم يدم طويلاً فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه انظارهم من طلب الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية واضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وان يكن أقل مما يجبى وهو الضمان أو المقاطعة — كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥ هـ على أن يدفع له ١٠٠٠٠٠٠ درهم في العام [٣] مع ان ارتفاع جبايتها الحقيقي ١١٥٠٠٠٠٠ درهم [٤] وضمن البريدي الاهواز على أيام الراضي كل سنة ٣٦٠٠٠٠٠ دينار على ان يدفعها اقساطاً [٥] وخراجها الحقيقي يزيد على اربعة أضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون الا قليلاً مما تعهدوا به . فاذا ألح الخليفة عليهم في المطالبة اتخذوا الحاحه ذريعة الى الاستقلال التام فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد

---

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٨ (٢) المقريزي ١٠٦ و ١٠٨ ج ١
(٣) ابن الاثير ١٤٩ ج ٦ (٤) ابن خلدون ١٥٠ ج ١
(٥) ابن الاثير ١٢٦ ج

(٤) اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن وانتشبت الحروب بين طوائف الجند أو بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وغلت الاسعار وتعطلت الزراعة لضياع الأمن فقلت الجباية واحتاج العمال والقواد الى الاموال فظلموا الناس في تحصيلها منهم فزاد الخراب — وما من هادم للعمران كالظلم فانه يغل الايدي ويقعد الناس عن السعي فيشتغل به الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته ووبال ذلك عائد على الدولة اذ لا قوام لها الا بالرعية . والمشهور ان الظلم أخذ المال من يد مالكه بلا عوض ولا سبب ولكنه أعمّ من ذلك كثيراً فان كل من أخذ مال أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة — فاذا ساد الظلم أقبل الخراب لا محالة

ومما زاد البلاء جسامة ان اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون في أوائل الدولة العباسية من الترع والانهر لري الارض وتسهيل الاستغلال انسدّ بالحروب . لان المحاربين كثيراً ما كانوا يضطرون الى سد الانهر ليمنعوا سفن الاعداء من المرور فيها[1] فضلاً عما يدعو اليه اهمال العمال من فساد الري وضياع الزرع

(٥) تحويل اكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع او ما يعبر عنه المصريون بالابعادية أو العزبة . ويغلب في الضياع ان تكون لاهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم أو وزرائهم او كتابهم أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ وقد رأيت صفحة ١١ من هذا الجزء ان عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع لحكمة ارادها من بقائهم على أهبة الرحيل عند الاقتضاء لا يقعدهم الترف أو القصف كما نهى عن اختزان المال في بيت المال . غير ان هاتين القاعدتين لم يطل العمل بهما الا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك العضوض في أيام بني

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و ٢٢٦ ج ٨

أمية فاختزن الصحابة الاموال واتخذوا المصانع والضياع كما بيناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين وكان اقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية فقد اكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصاباً من أصحابها وليس من ينصفهم لتعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم ولاعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكاً حلالاً لهم فما أرادوا اخذه أخذوه وما أرادوا تركه تركوه [١] حتى افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فعمل على الاقتداء بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل وأمر باسترجاع الضياع المغتصبة الى أهلها من النصارى أو اليهود أو المجوس فساء ذلك أهله فعجلوا به وعادت الاحوال بعده الى أشد مما كانت عليه كما تقدم

فلما افضت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ اعملوا السيف في بني أمية ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ولم يعدُّوا امتلاكها مخالفاً لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازماً لحياطة الدولة او حقاً من حقوق الملك اذ ليس من أوامر الدين أو نواهيه ما يمنعهم من ذلك صريحاً . والانسان ميال من فطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلاً . فالخلفاء العباسيون في أوائل دولتهم بذلوا الجهد في انصاف الناس وتأمينهم ليبينوا لهم الفرق بين حالهم في أيام بني أمية وفي ايامهم فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالاً ولكن بعض الذين دخلوا في خدمتهم او انتموا اليهم من الامراء او الكبراء كانوا يمدون ايديهم الى ضياع الناس وكان الخلفاء ينصفون اصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم [٢] على أن ذلك قلما كان يقلل من مطامع أهل الدولة في أموال الناس فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق أو بلا حق والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم أو قبضوا أموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد باموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم في اليوم [٣] وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التي سيأتي تفصيلها . فالضياع التي تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة أو الدولة

(١) المقريزي ٧٧ ج ١ والاغاني ٣٠ ج ١١ (٢) الماوردي ٨٧
(٣) المسعودي ١٨٨ ج ٢

فآل ذلك الى استكثار الخلفاء أنفسهم من الضياع

على ان أكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة وأهله . وذلك طبيعي في الحكومات الاستبدادية وخصوصاً اذا كان الحاكم كريم الخلق أو ضعيفاً تؤثر عليه وساطة أهله ورجال حاشيته . ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك . وفي اخبار البرامكة كثير من أمثال هذه العطايا . ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون فانه كتب ضياعه في رقاع اسم كل ضيعة في رقعة ونثرها على القواد فمن وقع له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها [١]

وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم — حتى في صدر الدولة العباسية — كثرة ما كان من الارضين المهملة من عهد بني أمية . فيأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له — كما فعل المنصور بابنه صالح اذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الاهواز [٢] — ومن احيا أرضاً مواتاً فهي له

«الالجاء» ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء الاهالي ضياعهم ومغارسهم الى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززاً بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الارض يلتجىء الى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه ان يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه فلا يتجرأ الجباة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالي الاعوام ملكاً للملجأ اليه [٣] ويصبح صاحبها الاصلي شريكاً في غلتها . ومثل هذا الالجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم

وقد بدأ الالجاء في الاسلام بأيام بني أمية لما كان من ظلم عمالهم . فألجأ أهل السواد في ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة أخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززاً به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت في أعقابه حتى قامت الدولة العباسية فقبض الخلفاء العباسيون عليها في جملة ما قبضوه من أموال بني أمية وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن علي بن عبد الله بن عباس ثم صارت من

(١) أبو الفداء ٣١ ج ٢ (٢) الفخري ١٥٧
(١) ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج ١

الضياع السلطانية [١] وكذلك فعل بعض أهل المراغة في اذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى أرمينيا فانهم ألجأوا تلك الضيعة اليه فقبضت في جملة ما قبض من ضياعهم [٢]

وامتد الالجاء الى أيام بني العباس بالاستمرار فألجأ أهل زنجان ضياعهم الى القاسم بن الرشيد تقرباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الاشربة وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية [٣] وحدث نحو ذلك أيضاً في فارس فقد كان فيها ضياع الجأها أربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق وظلت تجري بأسمائهم تخفف عنهم الربع وبقيت أجيالاً وهي في أيدي أهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها [٤] وأصبح أهلها مزارعين لهم

ولم ينقض عصر الزهو العباسي حتى أصبح في حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه ديوان الضياع وهو غير ديوان الخراج . وقد رأيت مقدار خراج الضياع في ما دونه علي بن عيسى في جريدة سنة ٣٠٦ وكلها في بلاد المشرق في الري ودوماوند وقزوين وزنجان وقم واصبهان وهمدان وماسندان وغيرها . وترى خراج الضياع في بعض الممالك يزيد على خراج الأرضين الأخرى . فخراج الضياع في ماه البصرة والايغارين مثلاً ٢٦٧ ٥٢٠ ديناراً وخراج سائر الارض هناك ١٨٠ ٦٣٦ ديناراً . ولو عوملت الضياع في مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الأرضين الأخرى لزاد خراجها أضعاف ذلك . لان خراج تلك الضياع كان خفيفاً جداً بالنظر الى غيره وكثيراً ما كان يترك ولا يطالب به أعواماً على مقتضى أحوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء وربما تراكم الخراج عدة أعوام حتى تتغير السياسة ويأتي من يطالب به [٥]

---

(١) قدامة ٢٤١ (٢) ابن الفقيه ٢٨٤ (٣) ابن الفقيه ٢٨٢
(٤) الاصطخري ١٥٨ (٥) ابن الاثير ١٨٢ ج ٧

﴿ الضياع السلطانية ﴾

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الاهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهذه اقسام سميت باسماء تدل على انواعها وهي

(١) الضياع الخاصة : وهي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه أحد . وقد رأيت خراج هذه الضياع في جريدة علي بن عيسى (غير ما كان منها في نواحي واسط لانه اضيف الى اموال العامة) ٤٤٧ ٥١٦ ديناراً

(٢) الضياع العباسية : وهي في الغالب لبني العباس أهل الخليفة وقد بلغ عددهم في أيام المأمون ٣٣٠٠٠ نفس[1] وبلغ خراج تلك الضياع سنة ٣٠٦ ﻫ ٧٦٠ ١٤٤ ديناراً سوى ما هو منها في واسط

(٣) الضياع المستحدثة : قد رأيت خراجها في تلك السنة ٠٣٦ ٢٨٩ ديناراً

(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لأنها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها لذلك العام ١٢٦ ٦١٧ ديناراً

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان [2] يضمنونها احياناً باموال معينة في العام [3] ولها دواوين وكتاب وعمال

فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها اخصب الارضين لان الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم [4] وقد يتركونها لهم ومع ذلك فقد رأيت خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها في واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر ان ذلك طبيعي في الدول المطلقة في تلك العصور فقد ذكرنا صفحة ٦٢ ان جباية الدولة العثمانية بلغت في أيام السلطان سليمان ٨٠٠٠٠٠٠ دوكات منها ٥٠٠٠٠٠٠ من الضياع السلطانية وحدها [5]

---

(١) ابو الفداء ٢٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٦٨ ج ٨
(٤) Ein. Abb. 80. (٥) Porter's Const. Hist. of Thurkey MS.

(الايغار) وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه « ايغار » ومعناه في الاصل « استيفاء » فيقولون « أوغر العامل الخراج اي استوفاه » ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الارض مرة واحدة ولذلك قالوا « اوغر الملك الرجل الارض جعلها له من غير خراج » أو هو أن يؤدي الخراج الى السلطان الاكبر فراراً من العمال ويسمى ضمان الخراج ايغاراً [١] فكان اصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا. ومن الايغارات المشهورة في الدولة العباسية « ايغار يقطين » وأصلها ان رجلا اسمه يقطين أوغرت له ضياع من عدة الطساسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين [٢]

اسباب كثرة النفقات

(١) اسراف الخلفاء ونسائهم

من الامور الطبيعية في العمران اذا كثرت الاموال في الدولة ان يسخوا الملوك في بذلها وخصوصاً في الدولة المطلقة وعلى الاخص في الدولة العباسية والخليفة مطلق التصرف في بيت المال[٣] ودعاة الخلافة كثيرون لا يقعد فتنتهم غير استرضاء الاحزاب بالمال او كسر شوكتهم بالحرب والاول اسلم عاقبة واقرب منالاً اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون. فلا غرو اذا رأيناها يبذلان الاموال في استكفاف الاذى عن الدولة او سد افواه أهل الفتن. لكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف فاقتنوا الجوازي واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة [٤] وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء وارتكبوا

---

(١) محيط المحيط (٢) قدامة ٢٤١ (٣) الماوردي ٢٠٣

(٤) اعلام الناس ٩٨

سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي (١) وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الاموال

(ثروة نساء الخلفاء) لم يتزوج السفاح الا امرأة واحدة (٢) . وقبل ان يتوفى المنصور اوصى ابنه المهدي ان لا يشرك النساء في أمره (٣) ومع ذلك فان الخيزران ام الرشيد كانت هي صاحبة الامر والنهي في ايام الهادي وايامه وكان وزيره يحيى تحت امرها (٤) فافضى نفوذها الى حشد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام ١٦٠٠٠٠٠٠ درهم (٥) وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة اعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال . فقد ذكروا ان ايراد روكفلر الغني الاميركي الشهير نحو ١٠٥٠٠٠٠٠ جنيه في السنة وغلة الخيزران اكثر من ١٠٥٠٠٠٠٠ دينار . وقد بينا في غير هذا المكان ان قيمة النقود كانت تساوي ثلاثة اضعافها اليوم والدينار نصف جنيه فتكون غلة روكفلر نحو ثلثي غلة الخيزران

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة في الاستئثار فلما آنست في ابنها الهادي معارضة لارادتها دست اليه من قتله (٦) ولما ماتت توسع الرشيد باموالها وأقطع الناس ضياعها (٧)

على ان الخيزران كانت من أهل العلم والرأي فلا غرابة في اقتنائها الاموال في ابان الثروة العباسية انما الغرابة في اقتناء أمهات الخلفاء الاموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو ٢٠٠٠٠٠٠ دينار نقداً وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته ٢٠٠٠٠٠٠ دينار وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل ٥٠٠٠٠ دينار (٨)

---

(١) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢ (٢) اعلام الناس ٤٥ (٣) ابن الاثير ٨ ج ٦
(٤) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٥) المسعودي ١٨٨ ج ٢ (٦) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٧) سير الملوك ٨٥ (٨) الطبري ١٧١٩ ج ٣

وأغرب من ذلك شأن ام محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار [١] في العام تنفقها في جوارها وهي نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله [٢] وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام . فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من اطلاق الايدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه اطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم في بيوت الاموال واباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الاموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة [٣]

فلا عجب والحالة هذه اذا تحوّل الغنى الى النساء والخدم والقواد . وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت انه كان بين رياش ام المستعين بساط انفقت على صنعه ١٣٠٠٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ؟ [٤] . او اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلاني دراً فباعه بعشرين الف دينار [٥] او اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء ؟ [٦]

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كنّ يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير او من ينوب عنه [٧] فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي اعمال الدولة — كما كانت تفعل ام موسى القهرمانة في ايام المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة [٨] ولم يكن لاولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجواري والخدم وغيرهم

(الجواري والغلمان) وقد رأيت في ما ذكرناه من مناقب المنصور صفحة ٩٨ انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله . ولكن لم يمض على موته

---

(١) الطبري ١٧٢٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٧ ج ٧ (٣) ابن الاثير ٤٧ ج ٧ (٤) المستطرف ١٣٤ ج ١ (٥) ابن خلكان ١٩٩ ج ١ (٦) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٧) ابن الاثير ٣٧ ج ٨ (٨) ابن الاثير ٢٤ ج ٨

اربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مرسحاً للغناء واللهو ـ قالوا انه كان في قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطيرية فضلاً عمن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ ابي الحسن الخليع الدمشقي (١) وابن ابي مريم المدني (٢) وغيرهما . وما من جارية الا وثمنها الف دينار أو عشرة آلاف دينار(٣) الى مئة الف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الاخرى كالالبسة والحلي وهي شيء كثير . فقد اشترى الرشيد خاتماً بمئة الف دينار (٤) وقس على ذلك

ناهيك عما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١٠٠٠ خصي من الروم والسودان (٥) غير ما يقتضيه ذلك من الابنية والقصور والرياش . فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم(٦) وبنى الامين قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٧) واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على صورة الأسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالاً عظيما وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للامين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً	سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس اذ رأوك على صو	رة ليث تمرّ مرّ السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ	ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما	استعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن ايراده مثالاً على بذخهم ان الامين المذكور امر يوماً ان يفرش له على دكان في الخلد ففرش عليها بساط ذرعي ونمارق وفرش مثله وهيأ من آنية الذهب والفضة والجواهر امر عظيم وأمر قيمة جواريه ان تهيء له مئة جارية صانعة فتصعد اليه عشراً عشراً بايديهن العيدان يغنين بصوت واحد (٨) ففعلت

(١) اعلام الناس ٩٧ (٢) الطبري ٧٤٣ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ١٢٦
(٤) ابن الاثير ٤٤ ج ٦ (٥) الفخري ٢٣٤ (٦) ابن الاثير ٢١١ ج ٨
(٧) ابن الاثير ١١٢ ج ٦ (٨) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦

وسنأتي على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم في الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب

(السخاء) على ان الاسراف كان أكثره في ما يبذلونه كرماً وسخاء ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً . فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته [١] وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم[٢] فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على ٢٠٠٠٠٠٠ درهم. وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها . فقد فرق المنصور في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم على أهل بيته [٣] وفرق المأمون في يوم واحد ١٥٠٠٠٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص [٤] وقد رأيت صفحة ٨٦ انه فرق ٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم ورجله في الركاب . وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم . وتصدق المعتصم في اثناء خلافته بما مجموعه ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم [٥] وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الارزاق ٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار[٦] — فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مئة الف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر انه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف أنه لا يأخذ قيمتها الا مئة الف الف درهم (١٠٠٠٠٠٠٠٠) فأعطاه اياها — وفي ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء [٧] وكثيراً ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلاً عن الاموال [٨]

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وأمثاله يحسبه أهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على ما يعلمونه من القواعد الاقتصادية . على اننا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ما تبين لهم من مقدار الثروة العباسية ومقدار ما كان يبقى من الاموال تحت تصرف الخلفاء أو من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب — الا اذا شككنا في حقيقة تلك الثروة وهو شك في

(١) الطبري ٧٤٠ ج ٣ (٢) الفخري ٢٠٧ ٣٠ ابن الاثير ١٣ ج ٦
(٤) ابن الاثير ١٦٧ ج ٦ (٥) الطبري ١٣٢٩ ج ٣ (٦) ابن الاثير ٩٠ ج ٨
(٧) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٨) الطبري ١٤٦٨ ج ٣

التاريخ على اجماله . لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما بيناه من هذا القبيل كما رأيت . ثم اذا اعتبرنا نظام الهيأة الاجتماعية في تلك الايام على ما سنفصله في الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم في مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين أغنيائنا اليوم من يبذل ٥٠٠٠٠ جنيه و١٠٠٠٠٠ جنيه عن صورة أو قطعة من الآثار القديمة لا تنفع ولا تضر . وقرأنا بالامس ان مورغن المثري الامريكي الشهير اشترى صوراً بمليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف

وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم أيضاً من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدي وهو ولي عهد قال : قدمتُ على المهدي في الري وهو ولي عهد فأمر لي بعشرين الف درهم لابيات امتدحته بها فكتب اليه المنصور (ابوه) يعزله ويلومه ويقول له « أما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنةً اربعة آلاف درهم » — الى ان قال — وبعث المنصور يستقدمني اليه حتى جئت ودخلت عليه فقال «هيه أتيت غلاماً غرًّا فخدعته » فقلت « نعم اصلح الله امير المؤمنين أتيت غلاماً غرًّا كريماً خدعته فانخدع » فقال المنصور « انشدني ما قلت فيه » فأنشدتهُ (ثم ذكر القصيدة ومطلعها :

هو المهديُّ الا ان فيه مشابه صورة القمر المنير)

فقال « والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين الف درهم » وقال « اين المال » قلت « ها هوذا » قال « يا ربيع انزل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقي » فخرج الربيع فحط ثقلي ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي [١] . فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يقدرون الشعر بآلاف الدراهم

هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟

بقي علينا النظر في ما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها هل كانوا يؤدونه من أموالهم الخاصة ام من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولاً صريحاً . على أن سكوت المؤرخين عنه يرجح أنهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال — ولا جناح فيه عليهم لان الامام عندهم

(١) الطبري ٤٠٦ ج ٣

هو ولي بيت المال ينفقه في ما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده وقد يرى في اجازة الشاعر أو هبة العالم فائدة للدولة

على اننا رأينا ذكراً لبيت مال الخاصة في ايام الهادي ويظهر من سياق بعض الحوادث التي وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا امروا لشاعر أو غيره بمال انما يريدون ان يدفع له من بيت مال المسلمين وان الوزراء كثيراً ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون امر الخليفة في الصرف كما وقع لعيسى بن دأب مع الهادي — وذلك ان عيسى المذكور كان من اكثر أهل الحجاز أدباً وأعذبهم الفاظاً وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن لاحد قبله . فامر له مرة بثلاثين الف دينار في دفعة واحدة . فلما أصبح ابن دأب ارسل قهرمانه الى الحاجب في قبضها فقال الحاجب « هذا ليس اليّ فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد الى ابن دأب فاخبره فقال « اتركها » . فبينما الهادي في مستشرف له ببغداد رأى ابن دأب وليس معه الا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادي « أرى ثوبك غسيلاً وهذا شتاء يحتاج فيه الى الجديد » فقال « باعي قصير » فقال « وكيف وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك » فقال « ما وصل اليّ » فدعا الهادي صاحب بيت مال الخاصة فقال « عجل الساعة ثلاثين الف دينار » فاحضرت وحملت بين يديه [1] — فيظهر من سياق هذه الحكاية ان الخليفة أراد ان يدفع اليه المال من بيت المال العام فلما لم يدفعوا له امر بدفعه من بيت ماله الخاص

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خالد اذ أمره الرشيد ان يدفع عن جارية ١٠٠٠٠٠ دينار فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد فاراد يحيى ان يبين له مقدار ما يحمله بيت المال من هذا الاسراف في ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠ درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد اذا أراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما اخبروه انه عن الجارية ادرك اسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه فحفظ ذلك في نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة [2]

(١) ابن الاثير ٤٣ ج ٦ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره ان يدفع ضعفين ففعل [١]

وفي كتاب ابي سفيان الثوري الى الرشيد جواباً على كتاب استدعاه به الى بغداد ما يشبه كلام ابي ذر الغفاري لمعاوية ويدلُّ على ان الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين . وذلك ان الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه في الكوفة واخبره ان الناس قدموا اليه وانه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب السنية الخ . فاجابه ابو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفي جملة ذلك قوله « اما بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانفذته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته وانت ناءٍ عني حتى كتبت اليَّ تشهدني على نفسك . فاما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل . يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ... هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في ارض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . . ؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضي بفعلك الايتام والارامل أم رضي بذلك خلق من رعيتك . ؟ . » [٢]

فهذا وأمثاله يدل على ان الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال

تكاثر ابواب النفقة في الدولة

بينا في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة١٠٣(طبعة ثانية) كيف تدرجت الدولة الاسلامية في مصالحها منذ كان النبي هو الامير والوزير والقاضي والقائد حتى اصبح موظفو الحكومة في أيام الراشدين ستة وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع المملكة في أيام بني امية فبني العباس . وكانت تلك المصالح تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء فاصبحت في أيام الرشيد

(١) ابن الاثير ١٣ ج ٧ (٢) الدميري ١٨٨ ج ٢

اكثر منها في ايام المنصور وفي ايام المأمون اكثر منها في ايام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها في ايام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت في جريدة المعتضد (صفحة ٦٤) من اصناف المرتزقين في بلاط الخليفة من الغلمان والمماليك واصحاب المطابخ والجلساء واصحاب الركاب ما لم يكن له ذكر في صدر الدولة العباسية . وقس عليهم أصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء مما لا يقع تحت الحصر وكله قد اقتضاه الترف في حضارة الدولة

وزد على ذلك ان بعض النفقات كانت تصرف من غير بيت المال فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لا سبيل الى معرفتها اذ لم يرد نص صريح بشأنها وان كنا نستدل عليها ضمناً من نصوص كثيرة - مثل ما نراه من الفرق بين جريدة النفقات في ايام المعتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة علي بن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد في هذه نفقات لا ذكر لها في تلك مثل نفقات الحرمين ورواتب القضاة في الممالك وولاة الحسبة واصحاب البريد في جميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الابواب غير واردة في تلك لان العمال كانوا يقومون بها من خراج أعمالهم كما اشرنا الى ذلك فلما ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها

وقد تقدم صفحة ١٩١ (طبعة ثانية) من الجزء الاول ان ارتفاع الثغور كان ينفق في مصالحها لا يرد منه شيء الى بيت المال على أنهم كثيراً ما كانوا يستوردون منها الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها في صدر الدولة العباسية [1] أما في ايام الانحطاط فقلت الغزوات وبطلت الغنائم وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور وزادت عما كانت عليه في صدر الدولة حتى بلغت في أيام المقتدر نحو ٥٠٠٠٠٠ دينار وكانت قبله ١٠٠٠٠٠ دينار وهو مقدار ارتفاعها ينفق في مصالحها [2] - ناهيك عما حدث من نفقات الجند وغيره

---

(٣) زيادة الرواتب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد مصالح لم تكن من قبل ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في أوائل الدولة . وطبيعي اذا كثرت ثروة

---

(١) ابن الاثير ٢٧ ج ٦ (٢) قدامة ٢٥٣

الدولة أن توسع على رجالها فتزيد رواتبهم وجوارهم . فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على اساس ضعيف لا تلبث أن تحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هي فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطرون الى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً

كان المسلمون في أيام النبي وابي بكر يرتزقون مما يقع في أيديهم من الغنائم فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتباً معيناً في السنة وميزهم باعتبار انسابهم من النبي أو سابقتهم في الاسلام [١] وليس باعتبار ما يؤدونه من الاعمال فقد يكون احدهم كاتباً او عاملاً او قاضياً على السواء . فلما تفرعت مصالح الدولة وتميزت لم يروا بداً من تعيين الرواتب باعتبار المناصب فجعلوا لكل من الجندي والعامل والكاتب والحاجب والقاضي وغيرهم راتباً معيناً . ولما حدثت الوزارة في الدولة العباسية جعلوا لها راتباً كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة . واختلف مقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف الدول والعصور فلننظر في تاريخ أشهر تلك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه

(رواتب العمال) : كان راتب العامل في ايام عمر ٦٠٠ درهم في الشهر [٢] ثم اختلف باختلاف العمال والاعمال فقد جعل عمر لمعاوية على الشام الف دينار في السنة [٣] ولما افضى الامر الى بني امية اصبحت ولاية الاعمال فوضى على ما تقتضيه الاحوال من اطماع العمال بنصرتهم او التوسيع لهم بالنفقة لحرب الخوارج او العلويين او غير ذلك . فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها — على ان ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار كعامل العراقين او مصر او خراسان . وقد بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هبيرة امير العراق في ايامهم ٦٠٠٠٠٠ درهم في السنة [٤] وبلغت غلة خالد القسري ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم [٥] وليس هذا الاخير من قبيل الراتب فلا يقاس عليه

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم في أعمالهم كما كان يفعل الحجاج في العراق وعمرو بن العاص بمصر . فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لا تزيد على

(١) الجزء الاول ١٥٤ (طبعة ثانية) (٢) سراج الملوك ٢٧٧ (٣) المقريزي ٩٥ ج ١ (٤) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ (٥) ابن خلدون ٩٦ ج ٣

٣٠٠ درهم في الشهر [١] وظلت على نحو ذلك في صدر الدولة العباسية الى ايام المأمون فزادها وزيره الفضل بن سهل في جملة ما زاده من الرواتب على اثر ما كان من تكاثر الثروة مع رغبة الخليفة في ارضاء نصرائه من اهل خراسان . اما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال لان العمل قد يحصر في ولاية صغيرة او يعقد على عدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه واهميته وباعتبار رضى الخليفة عن عامله ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان الى التيبت طولاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً الى الهند وجعل له عمالة ٠٠٠ ٠٠٠ ٣ درهم في السنة وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين واعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين [٢] السيف والقلم ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رئاسة الحرب » ومن الجانب الآخر « رئاسة التدبير » [٣] ـ فعل المأمون ذلك له لما كان من نصرته اياه في خلافه مع اخيه الامين فلا يقاس به العمال الذين كانوا يتولون الاعمال الصغرى ومنهم بضعة عشر عاملاً تحت راية الفضل بن سهل في المشرق . وعمالة هؤلاء تختلف ايضاً باختلاف الولايات ويظهر انها كانت تتراوح بين ٣٠٠ درهم و ٠٠٠ ١ قياساً على ما ذكره ابن حوقل من رواتبهم في ايام منصور بن نوح [٤]

وأما عمال الولايات الكبرى التي كانت علاقتها رأساً مع الخليفة فقد كانت رواتبهم كبيرة جداً كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين ابن علي الماذراني على مصر في اوائل القرن الرابع للهجرة ٠٠٠ ٣ دينار في الشهر [٥] أو ٠٠٠ ٦٠ درهم ومقدار ذلك في السنة ٠٠٠ ٧٢٠ درهم وقس على ذلك

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام رأيناها فاحشة جداً . لان الولايات في الدولة العثمانية ثلاث درجات الدرجة الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية في الشهر والثانية ٢٠٠ والثالثة ١٥٠ ليرة . وراتب عامل انكلترا على الهند (حكمدار الهند) ٨٣٣ ٢٠ روبية في الشهر [٦] أي نحو ٠٠٠ ٥٠٠ فرنك في السنة وهو

---

(١) الطبري ٤٣٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٠٣ ج ٦ (٣) الطبري ٨٤١ ج ٣
(٤) ابن حوقل ٣٤٢ (٥) Ein. Abb. 80. (٦) ويتكر ٤٦٦

أعظم رواتب العمال في هذا العهد . ومع ذلك فانه أقل من راتب الماذراني المتقدم ذكره — ناهيك بما كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه

(رواتب الكتاب) : وكانت رواتب الكتاب الى ايام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها في الشهر على ٣٠٠ درهم فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم نقف على مقدار تلك الزيادة . ولكن بالقياس على غيرها يجب أن تكون كثيرة . فضلاً عما كانوا يستولون عليه من الاخرجة اليومية وقد عدّد المقريزي ما كان يستولي عليه كاتب من كتاب مصر في عهد الدولة الفاطمية في اليوم الواحد من البقولات والتوابل والحلويات والأثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ومن الالبسة والافرشة وما كان يجري من ذلك كله على اولاده واهله فاستغرق تعداده نحو صفحتين او ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب — فاكتفينا بالاشارة اليه تفادياً من التطويل ومن اراد التفصيل فليراجعه هناك (١)

(رواتب الوزراء) : الوزارة من محدثات الدولة العباسية وأول من اشتهر من وزرائها البرامكة ولم نقف على مقادير رواتبهم والظاهر أنها كانت كبيرة . فضلاً عن اطلاق ايديهم في بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على اننا قد رأينا في قائمة النفقات في ايام المعتضد صفحة ٦٦ ان راتب الوزير ٣٣ ⅓ دينار في اليوم أو الف دينار في الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب في هذه الايام زاد هذا الراتب على ١٥٠٠ جنيه — وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير في الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية في الشهر الا الصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة . والوزير المصري راتبه ٢٥٠ جنيه في الشهر وراتب اكبر وزراء انكلترا ٢٠٠٠ جنيه في العام (٢)

على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف الاعصر والدول — كان راتب الوزير على ايام الناصر الاندلسي ٨٠٠٠٠ دينار في السنة وهدايا (٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفي في اواسط القرن السادس للهجرة ١٠٠٠٠٠ دينار في السنة (٤) وكان للوزراء فضلاً عن رواتبهم المشار اليها رواتب لاولادهم واخوتهم وخدمهم واتباعهم وارزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً في مصر . فقد كان راتب

(١) المقريزي ٣٩٩ ج ١ (٢) ويتكر ١٧٠
(٣) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ (٤) الفخري ٢٧٨

الوزير في الدولة الفاطمية ٥٠٠٠ دينار في الشهر ولمن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ — ٣٠٠ دينار ما عدا الاقطاعات [١] غير ما يجري عليه وعلى اهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار ايام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه وأهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار في الشهر . ومن الفاكهة سلة بدينار وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف حمل بلح [٢] وكان راتب الوزير في الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد [٣]

《 رواتب القضاة 》 : كان راتب القاضي في أيام الراشدين مئة درهم في الشهر ومؤونته من الحنطة [٤] ثم ارتقى في ايام بني أمية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة ٨٨ هـ الف دينار في السنة [٥] أي نحو عشرة أضعافه في أيام الراشدين فلما افضت الخلافة الى بني العباس انزلت الرواتب وصار راتب قاضي مصر في ايام المنصور ٣٠ ديناراً في الشهر . ثم تصاعد في عهد من خلفه حتى بلغ في أيام المأمون (سنة ٢١٣ هـ) ٤٠٠٠ درهم في الشهر أي نحو ٢٧٠ ديناراً ثم عاد في ايام ابن طولون الى الف دينار في السنة [٦]

واما في بغداد فلم نطلع على راتب القاضي في اوائل الدولة العباسية ولكننا رأينا في جريدة المعتضد ان راتب القاضي ١٦ ⅔ دينار في اليوم او ٥٠٠ دينار في الشهر بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي — ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام فان راتب شيخ الاسلام في الاستانة لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية في الشهر مع اعتبار الفرق في قيمة النقود بين تلك الايام واليوم

《 رواتب الخلفاء واهلهم 》 : قد رأيت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاهل الوزراء والكتاب فبالاولى ان يفرضوها لانفسهم واولادهم والخليفة هو القابض بيده على بيت المال . لكننا لم نجد قولاً صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لاهلهم من الضياع او الاموال واكثر ما كانوا يفعلون ذلك في أول

(١) المقريزي ٤٠١ ج ١ (٢) المقريزي ٣ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٧٣ ج ٢
(٤) سراج الملوك (على هامش المقدمة) ٢٧٧ (٥) السيوطي ١١٥ ج ٢
(٦) السيوطي ١١٩ ج ٢

الدولة اذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك فيبتاعون البيعة بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى اذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ ١١٠٠٠٠٠٠ درهم له ولاولاده (١) أو للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فانه أمر لكل واحد منهم بعليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك (٢) ويظهر أنها كانت تدفع اليهم في كل عام . ولما توفي ابنه المهدي فرض لاهل بيته كل واحد ٦٠٠٠ درهم في السنة (٣) والظاهر أنهم بقوا على نحو ذلك فضلاً عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة وخصوصاً ابناء الخلفاء وولاة عهدهم فان الهادي أمر سنة ١٧٠ هـ لابنه الرشيد بعليون دينار وان يحمل اليه نصف الخراج(٤) على أثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد

والظاهر ان الرشيد زاد في رواتب اهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته . وكان اعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في ايامه ٣٣٠٠٠ نفس . ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما واشهد عليهما بذلك وترك للمعتز ما يتحصل منه في السنة ٢٠٠٠٠ دينار وللمؤيد ما يتحصل منه ٥٠٠٠ دينار وحبسهما (٥)

فلما كانت ايام ابن رائق امير الامراء في اوائل القرن الرابع للهجرة كفت ايدي الخلفاء عن بيت المال وصارت الى رجال الدولة — وأول من كفت يده الراضي بالله الذي توفي سنة ٣٢٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة في الاموال وصار الخلفاء في حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتباً زهيداً (٦)

ويظهر ان الخلفاء لم يكن لهم قبل ذلك رواتب معينة غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع — الا أبا بكر فقد فرضوا له ٦٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف(٧) ثم لم نرَ ذكراً لرواتب الخلفاء الى أيام ابن رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفي ٥٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ولكنه قلما كان يدفعها اليه (٨) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتي ذكره في حينه

---

(١) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥ (٢) الطبري ٤٢٠ ج ٣ (٣) سير الملوك ٦٥
(٤) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٥) الطبري ١٥٠٧ ج ٣ (٦) الفخري ٢٥٤
(٧) المقريزي ٩٥ ج ١ (٨) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨

وفرض الاعطية للملوك وأهلهم عادة جارية عند معظم الامم الان والغالب في الدول المتمدنة أن تكون تلك الرواتب معينة في ميزانيتها وهاك رواتب العائلة المالكة في انكلترا لعام ١٩٠٢

رواتب العائلة المالكة في انكلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انكليزي	
١١٠ ٠٠٠	راتب الملك
١٢٥ ٨٠٠	راتب خدم القصر
١٩٣ ٠٠٠	نفقات القصر
٤١ ٢٠٠	نفقات أخرى وصدقات
٤٧٠ ٠٠٠	(جملة مخصصات الملك)
١٦٠ ٠٠٠	رواتب سائر اعضاء العائلة
٦٣٠ ٠٠٠	

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصري	
١٠٠ ٠٠٠	مخصصات الحضرة الخديوية
٩٧ ٩٢٧	مرتبات العائلة الخديوية
٥٧ ٤٣٤	نفقات كابينه الحضرة الخديوية
٢٥٥ ٣٦١	

وللجلالة السلطانية راتب مقداره في الشهر ٧٥ ٠٠٠ ليرة عثمانية أو ٩٠٠ ٠٠٠ ليرة في السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢)

(رواتب حاشية الخليفة) : ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالاطباء والحجاب والحرس الخاص. ورواتبهم من بيت مال الخاصة .وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة وكانت كبيرة نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد ومنها رواتب نقدية

كان يقبض بعضها من بيت مال العامة والبعض الآخر من بيت مال الخاصة واليك راتب جبريل المذكور في السنة كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه[١]

مرتبات جبرئيل بن بختيشوع طبيب الرشيد في السنة

درهم	من بيت مال العامة	
	١٢٠ ٠٠٠	راتب نقدي
١٨٠ ٠٠٠	٦٠ ٠٠٠	النزل
	من بيت مال الخاصة	
	٥٠ ٠٠٠	راتب نقدي
	٥٠ ٠٠٠	ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
	١٠ ٠٠٠	» » يوم الشعانين ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	» » » الفطر نقداً
	١٠ ٠٠٠	» » » » ثياباً
	١٠٠ ٠٠٠	لفصد الرشيد دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٤٢٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	لشرب الدواء » » » » » ٥٠ ٠٠٠
٦٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	
	من اصحاب الرشيد نقداً وثياباً واطياباً	
	٥٠ ٠٠٠	من عيسى بن جعفر
	٥٠ ٠٠٠	» زبيدة أم جعفر
	٥٠ ٠٠٠	» العباسة
	٣٠ ٠٠٠	» ابرهم بن عثمان
	٥٠ ٠٠٠	» الفضل بن الربيع
	٧٠ ٠٠٠	» فاطمة ام محمد
٤٠٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	كسوة وطيب ودواب
١٠٠٠٠٠٠	(المجموع)	

(١) طبقات الاطباء ١٣٦ ج ١

١ ٠٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)
	من البرامكة
	٦٠٠ ٠٠٠ من يحيى بن خالد
	١ ٢٠٠ ٠٠٠ « جعفر بن يحيى الوزير
٢ ٤٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ ٠٠٠ « الفضل بن يحيى
٨٠٠ ٠٠٠	غلته من ضياعه
٧٠٠ ٠٠٠	من فضل مقاطعته
٤ ٩٠٠ ٠٠٠	(الجملة)

فجملة رواتبه فقط ٤ ٩٠٠ ٠٠٠ درهم في العام فاذا جمع ذلك في مدة خدمتها كلها وهي ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢ ٧٠٠ ٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم في العشر السنين الاخيرة وهو ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم فالباقي ٨٨ ٧٠٠ ٠٠٠ درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام. وأما ما انفقه فهو :

درهم	
٢٧ ٦٠٠ ٠٠٠	نفقاته على نفسه وبيته في السنة ١ ٢٠٠ ٠٠٠ درهم عنها في ٢٣ سنة
٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠	ثمن دور وبساتين ومتنزهات ودواب ورقيق وغيرها
٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ثمن آلات واجر وصناعات ونحو ذلك
١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ما صار في ثمن ضياع ابتاعها لخاصته
٥ ٠٠٠ ٠٠٠	ثمن جواهر وما أعده للذخائر
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ما انفقه في البر والصلات والمعروف
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ما كابره عليه اصحاب الودائع وجحدوه
١٢٨ ٦٠٠ ٠٠٠	(والمجموع في الاصل ٩٠٠ ٠٠٠ دينار و ٩٠ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم)

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الايام. فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة. وغلة صاحب شرطته ٥٠٠ ٠٠٠ درهم وغلة حاجبه ١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة [1]

(١) طبقات الاطباء ١٣٢ ج ١

﴿رواتب الجند﴾ : بينا في باب الجند من الجزء الاول صفحة ١٥٥ (طبعة ثانية) كيف كان المسلمون كلهم جنداً وذكرنا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة وكيف تضاعفت رواتبهم في أوائل أيام بني أمية ثم نقصت في أواخرها ثم زادت في اوائل بني العباس ثم نقصت حتى صارت في ايام المأمون ٢٤٠ درهماً في السنة للجندي الراجل (النفر) فضلاً عن حصته من الغنائم اذا غزا . ويظهر أن تلك الحصة كانوا يحبسونها عن الجند في صدر الدولة العباسية حتى طلبوا من محمد الامين سنة ١٩٨ هـ ان يردها عليهم اذا غزوا فردها فاصاب الرجل ستة دنانير[1]

ولما قامت الفتنة بين الامين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده بالاعطيات فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة)[2] أي انه أعادها الى ما كانت عليه في ايام السفاح . فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهماً

﴿ الافشين وبابك ﴾ فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وكان ما كان من اقتنائه الاتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للاسباب التي قدمناها أصبح مرجع القوة في كل شيء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الخرمي في ارمينيا واذربيجان . وكان بابك قد ظهر في أيام المأمون يدعو الناس الى دين جديد أساسه التقمص[3] فبعث اليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة . فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لانه أصبح في خطر منه على ملكه فبعث اليه اتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الافشين حيدر بن كاووس سنة ٢٢٠ هـ ثم اردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال وآخر اسمه جعفر الخياط ثم انفذ اليه ايتاخ ومعه ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم لنفقات الجند . وبعد حروب سنتين فاز الافشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء ببابك الى سامرا فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون انهم نجوا من بابك على يده لانه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً فقتل في عشرين سنة ٢٥٥٠٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم . فلما قبض الافشين عليه أمر

(١) الطبري ٩٧٢ ج ٣ (٢) الطبري ٨٣٠ ج ٣ (٣) ابن الاثير ١٣٤ ج ٦

المعتصم ان يركبوه على الفيل فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم ادخلوه على المعتصم في داره فأمر سياف بابك نفسه ان يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه في سامرا . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله — وكان لا ينفك وهو يواصل الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلعة وفرساً ويدفع اليه في اثناء اقامته بازاء بابك (سوى الارزاق والانزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه وألبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه (١)

فالافشين لم يثبت في محاربة بابك الا طمعاً بالمال مع ما كان يواصله به المعتصم من الخلع والاموال في اثناء الحرب ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو في دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة او هدية بعث به رأساً الى بلده في اشروسنة وراء النهر بطريقة سرية فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم والمعتصم يأمره ان يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالاً كثيراً جعله في اوساط أصحابه في الهمايين فبعث بن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال «من أين لكم هذا المال » قالوا « للافشين » فأخذه وأظهر ان الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه وقد تبين من محاكمته انه لم يعتنق الاسلام الا طمعاً في المال وانه لا يزال على المجوسية (٢)

وقس على ذلك سائر جند المعتصم فانهم انما كان يحاربون لمجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم في اقصى الشرق — فكيف تستقيم دولة هذا جندها — على ان الخلفاء لم يكونوا يجدون بداً من استنصارهم ولا سبيل الى ذلك الا بالمال . فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها اقتداء بما كان

(١) الطبري ١٢٣٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٠٩ و٢١١ ج ٦

يفعله المعتصم معهم – لانه بنى لهم سامراً وأقطعهم فيها الاقطاعات واشترى لهم الجواري فازوجهم منهنّ ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا أحداً من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض . وأجرى للجواري الاتراك أرزاقاً قائمة واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها [1]

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع ارزاق الرجال وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيما جداً – قال الطبري في حوادث سنة ٢٥٢ هـ « وذكر ان ارزاق الاتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة فكان مبلغ ما يحتاجون اليه في السنة ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » [2] – ونظن المراد ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (لا دينار) اذ يستبعد ان يجتمع هذا القدر من الخراج دنانير في سنتين لاننا لو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً وهي قيمته في ذلك الحين كان خراج المملكة في السنة ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم وقد رأينا خراجها في ابان ثروتها لا يزيد على ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم – فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند في سنة واحدة امر عظيم جداً وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في تلك الايام. ولكنه لا يعد شيئاً بالنظر الى نفقات الجند في هذه الايام (سنة ١٩٠٣) لان التمدن الحديث اقتضى الاحتياط والتجنيد واعداد المعدات حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصاً اذا اضفنا اليها نفقات الاساطيل – فانكلترا مثلاً تنفق على جنديتها براً وبحراً نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ جنيه في السنة اي نحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك (أو درهم) وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ وكذلك روسيا . وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعفي ما كان ينفقه العباسيون تقريباً ولكننا اعظمنا ما انفقوه بالنظر الى ما كان من طرق انفاق الجند عندهم

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسي من اغتصاب أموال الناس في منازلهم وحوانيتهم لاقل سبب يحدث والخلفاء لا يعدون ذلك ذنباً لهم بل ربما عنفوا الناس لأنهم لم ينقلوا سلعهم وامتعتهم الى مكان لا يعرفه الجند

على ان الخلفاء كانوا ينشطون مطامع الجند فيهم بما كانوا يشرطونه على انفسهم

(١) اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٣ (٢) الطبري ١٦٨٥ ج ٣

من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الفلاني حتى في ساحة الحرب . فكانوا اذا احتدم القتال وخاف الخليفة او الامير ضعفاً صاح في جنده « من جاء باسير فله عشرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ (١)

اما رواتب الجند العباسي اي ما كانوا يتقاضونه قدراً معيناً في العام فقد تبين من قائمة نفقات الدولة في أيام المعتضد صفحة ٦٤ ان ارزاق الجند من الفرسان والمماليك ونحوهم لا تزيد على ١٥٠٠٠٠٠ دينار أو ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم . ثم استفحل أمر الجنود الاتراك بتوالي الاعوام وتعددت فرقهم وتزايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره لانه يختلف باختلاف الازمان والاحوال فضلاً عن سكوت المؤرخين في هذا الشأن الا ما قد تتناوله عرضاً

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٢٠٠٠٠ رجل بلغت رواتبهم ١٢٠٠٠٠ دينار في الشهر أي ستة دنانير كل واحد. وكان عدد الفرسان ١٢٠٠٠ فارس رواتبهم في كل شهر ٥٠٠٠٠٠ دينار وذلك نحو ٤٢ ديناراً لكل واحد. أو نحو ١٢٠٠٠ درهم في السنة للفارس و ١٤٠٠ درهماً للراجل. وكانوا مع ذلك كثيراً ما يثورون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يجبهم (٢) . وتداخلوا في منازل الخلفاء ووضعوا ايديهم على الخلافة وصاروا يولون من شاؤا واذا أتت الاموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة أو الديوان الا القليل كما فعل اتامش وشاهك في أيام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ(٣)

وكما كان القواد يطمعون بالخلفاء ويستبدون فيهم كانوا أيضاً يستأثرون بالاموال دون افراد الجند حتى كثيراً ما ثار هؤلاء على قوادهم وطالبوهم بالاموال وهددوهم واذا لم يروا منهم اصغاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بوصيف سنة ٢٥٣ هـ فان الاتراك والفراغنة والاشروسنة شغبوا وطلبوا أرزاقهم لاربعة اشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما فكلمهم وصيف بالجفاء وقال لهم « خذوا التراب ليس عندنا مال » فوثب عليه بعضهم وقتلوه (٤) وكثيراً ما تظلموا الى الخلفاء وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التي قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار الى كبرائهم

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ (٢) صلة تاريخ الطبري ١٤٢ — ١٥١
(٣) الطبري ١٥١٢ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٧٠ ج ٧

من المعاون والزيادات في الرسوم القديمة مع ارزاق النســاء والدخلاء الذين قد استغرقوا اكثر أموال الخراج [١] حتى طلبوا التخلص منهم وان يقود الجند اخو الخليفة

(رواتب الجند الآن) على اننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاســلامي على اختلاف عصوره من ايام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية وقسناها برواتب جنود هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد عليها زيادة فادحة . فقد رأيت ان راتب الجندي في أيام الراشدين من ٣٠٠ ــ ٥٠٠ درهم في السنة ثم صار في أيام بني امية الف درهم وتقلب في أيام العبــاسيين حتى صار في أيام المقتدر ١٤٤٠ درهم للراجل و ١٢٠٠٠ درهم للفارس في السنة ــ تلك رواتب افراد الجند (الانفار) عندهم مع أن راتب النفر في الدولة الانكليزية للرجل شلين وللفارس شلين و ٩ بنسات في اليوم ومقدار ذلك في السنة نحو ٤٥٥ فرنكاً (أو درهم) للراجل و ٨٠٠ فرنك للفارس على ان رواتب الجند عندهم تختلف في كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولــكنها في كل الاحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند في الدول الاخرى . وأما بالنظر الى الدولة العباسية فانها صغيرة وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في الحالتين

ومن اسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم وان كنــا لا نعلم مقدار رواتب ضبــاط تلك الايام وهم القواد . وهاك رواتب الجنــد الانكليزي من اكبر الضباط الى النفر العسكري في اليوم [٢] ثم رواتب الجندين العثماني والمصري

رواتب الجند الانكليزي في اليوم بالجنيه والشلين والبنس (سنة ١٩٠٣)

	الفرسان			المشاة		
	ج	ش	ب	ج	ش	ب
الجنرال (المشير)	٨	—	---	٨		---
الفريق	٥	١٠	—	٥	١٠	-

---

(١) الطبري ١٧٩٦ ج ٣ (٢) ويتكر ٢٢٠

	المشاة			الفرسان		
	ب	ش	ج	ب	ش	ج
اللواء	.	—	٣	—	—	٣
اميرالاي	—	١٨	—	٦	١	١
قائمقام	—	١٨	—	٦	١	١
بكباشي	٧	١٣	—	—	١٥	—
يوزباشي	٧	١١	—	—	١٣	—
ملازم اول	٦	٦	—	٦	٧	—
« ثاني	٣	٥	—	٨	٦	—
النفر	—	١	—	٩	١	—

رواتب الجند العثماني في الشهر (سنة ١٩٠٣) رواتب الجند المصري في الشهر

قرش عثماني		قرش مصري	
٢٥٠٠٠	المشير	٠٠٠٠٠	المشير (لا يوجد)
١٠٠٠٠	الفريق	٧٥٠٠	الفريق
٦٠٠٠	اللواء	٦٥٠٠	اللواء
٢٥٠٠	اميرالاي	٤٧٠٠	اميرالاي
١٨٠٠	قائمقام	٣٠٠٠	قائمقام
١٢٠٠	بكباشي	٢٥٠٠	بكباشي
٨٠٠	قولاغاسي	١٥٠٠	صاغقولاغاسي
٥٠٠	يوزباشي	٩٠٠	يوزباشي
٢٥٠	ملازم اول	٦٠٠	ملازم اول
٢٠٠	« ثاني	٥٠٠	« ثاني
٢٠	نفر	٣٠	نفر

(رواتب اخرى) : كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو السنتهم أو احزابهم . لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لانفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم — والملك

لايخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام . وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام اكثر مما للصحافة في هذه الايام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالاحسان اليهم او الرفق بهم فيقطعون السنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية كما يفعل ملوك هذه الايام بالصحافة فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى ارباب الصحف في مقابل سكوتهم عنه والبعض الآخر يبتاع مساعدتهم في انهاض الهمم او جمع كلمة الاحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم في تلك الايام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الاموال لاسترضائهم

وأول من تحدى ذلك في الاسلام معاوية بن ابي سفيان . فكان يسمع التقريع باذنه ولا يجازي عليه الا بالعطاء ولذلك كانوا يعبرون عن اجازة الشاعر بقطع لسانه [١] وكان يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الاعطية لرؤساء الاحزاب من بني هاشم والطالبيين ونحوهم وصاروا يهبون الاموال لمن يخافونهم على سلطانهم واكثر ما كان يهبه الخلفاء من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لنحو ذلك الغرض

وكانوا يفرضون الرواتب أحياناً لاناس يرجون نصرتهم على مناظريهم في الملك كما فعل العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨١ هـ بعلي بن الحسين من آل المغربي لما جاءه من بغداد فانه جعل له ٦٠٠٠ دينار في السنة وسماه من شيوخ الدولة [٢] وقد يفرضونها لطبقات الناس من أهل العوز كما فعل الاخشيد بمصر في أوائل القرن الرابع للهجرة فانه فرض للضعفاء والمستورين من ابناء النعم وأجناس الناس (ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين بالاعمال) رواتب بلغ مقدارها في أيام كافور الاخشيدي ٥٠٠٠٠٠ دينار في السنة [٣] فلا بد من ان يكون مثل هذه الرواتب في الدولة العباسية

ناهيك برواتب الحاشية والاعوان ونحوهم ممن تندرج رواتبهم في نفقات الدولة فقد رأيت انها كانت كبيرة . ومن هذا القبيل حواشي الامراء والعمال والوزراء وغيرهم وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف [٤] أو تزيد

(١) المستطرف ٣٤ ج ١ (٢) المقريزي ٤٥٩ ج ٢
(٣) المقريزي ٩٩ ج ١ (٤) ابن الاثير ١٨٣ ج ٧

عدد ايام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب في ابان ثروتها ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الاموال الواردة على بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الجباية تتناقص ولم يعد في امكانها تنقيص الرواتب بعد ان تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم ولا في الامكان اقالتهم خوفاً من غضبهم فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب مياومة فاذا ارادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب الف دينار في الشهر مثلا فبدلاً من ان يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوماً أو خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عدد أيامه عن أيام أشهر الآخرين

فقائمة نفقات المعتضد المنشورة في هذا الجزء (صفحة ٦٤) يختلف شهر كل من اصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالغلمان الذين اعتقهم الناصر كانت أيام شهورهم اربعين يوماً فأساؤا الادب في مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين يوماً . ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوماً . والفرسان الاحرار والمميزين كانت شهورهم خمسين يوماً فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوماً . وأشهر المختارين سبعون يوماً واشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوماً وكذلك المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والسقايين . وقس عليهم سائر الموظفين في هذه القائمة وغيرها . فالذي راتبه الف دينار في الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوماً كانه تنزل الى الربع . وكثيراً ما كان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهراً بعد شهر حتى يثور الجند فاما ان يخلعوا الخليفة أو يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال

---

(٤) النفقة على البيعة

رأيت في ما تقدم ان الخلفاء في اوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين وكانوا يحملون اليهم الاموال ويبذلون لهم الاعطية

ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم وقوي جند الاتراك اهمل أمر الحرمين وصارت القوة اليهم أو بالحري الى المال – لان الاتراك إنما يحاربون مع صاحب المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى خاطرهم او الى من يدفع المال اليهم . على ان الخلفاء كانوا من اوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ويسمون ما يدفعونه اليهم في هذا السبيل « حق البيعة » فلما تولى الامين فرق في الجند رزق ٢٤ شهراً [١] ولولا ذلك لم يحكم شهراً واحداً . ولما أراد المأمون أن يبايع لعلي الرضا صرف للجند راتب شهر على أن يصرف لهم الباقي اذا أدركت الغلة [٢] فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو امية يعطون في مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين كما فعل عبدالملك بن مروان مع عبد الله بن خازم سنة ٧٢هـ وكان عبد الملك يحارب ابن الزبير في مكة ويخاف منه فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين [٣]

وأما بعد أيام المعتصم فاصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال لأنهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو اكثر أو أقل على قدر مطامعهم [٤] وهناك من أمثال هذه المطالبات ما لا يعد ولا يحصى فتراجع في تاريخ الخلفاء العباسيين . فانشغل الخلفاء بذلك عن سياسة المملكة واختلت الاحكام واصبح همهم منصرفاً الى حفظ أرواحهم واستبقاء ضياعهم وصارت البلاد فوضى للجند أو لمن يستطيع استخدامهم وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الاعمال بوجه الاجمال

وزاد أهل البلاد شقاء ان قواد الجند كانوا اذا اعوزهم المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي استخرجوه من الاهالي . وكثيراً ما كان يحدث ذلك في اثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم أموال الناس في بغداد في اثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ بشأن الخليفة المطيع لله وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار [٥] ولما عين الخليفة المستكفي شيرزاد أميراً للامراء في تلك السنة زاد هذا

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٢) الطبري ١٠١٣ ج ٣ (٣) ابن الاثير ١٦٨ ج ٤ (٤) ابن الأثير ٧٥ ج ٨ (٥) ابن الاثير ١٧٨ ج ٨

اعطيات الجنـد زيادة كثيرة على جاري عادتهم عند كل بيعة لـكنه لم يجد في بيت المال ما يعطيهم فقسـط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغـيرهم وظلم الناس . فظهرت اللصوص في بغداد وأخذوا الاموال نهباً ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى (١)

فآل ذلك وامثاله الى تتابع الاحن على البلاد فتقاعد أهل المدن عن العمل كما تقاعد أهل القرى عن الزرع وغلت الاسعار وتوالى الجوع اعواماً على مدن العراق وخصوصاً بغداد فكثر اللصوص وصاروا طوائف عديدة لا عمل لهم الا النهب عند سنوح الفرصة وخصوصاً في اثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء مالاً يستأجرون به جنـداً لدفع الفتن او اخماد الثورات . على انهم كثيراً ما كانوا يمسكون عن دفع المال ولو كان في خزائنهم لانهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمقتدر سنة ٣٢٠ هـ فانه امسك عن دفع الاموال وهي عنده وعند والدته حتى آل الامر الى قتـله بمساعي مؤنس الخادم . فكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم (٢) حتى تجرأوا على نهبهم ومصادرتهم كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ هـ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين وسبوا واحرقوا ففر بعض اهلها الى بغداد يستنجدون الخليفة وجنده وأهل المدينة فشغب الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الامر يومئذ هناك) الى الخليفة ان يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم فقـال المطيع « ان الغزاة والنفقة عليها وعلى غـيرها من مصالح المسلمين تلزمني اذا كانت الدنيا في يدي وتجبى اليَّ الاموال وأما اذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء وانما يلزم مَن البـلاد في يده وليس لي الا الخطبة فاذا شئتم ان اعـتزل فعلتُ » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠٠٠٠ درهم . فشاع الخبر ان الخليفـة صودر . على ان المال المذكور لم ينفق في الغزاة وانما انفقه بختيار في مصالحه (٣) وما اشـبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الاتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية في القرن الثامن عشر وبعيـدهُ ولا ندري كيف كان حالهم لو لم ينكبهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦

---

(١) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

(٣) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨

فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لا بد منه لحفظ السلطة فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد في خلافة المطيع شغب الجند عليه واسمعوه المكروه فضمن لهم ايصال ارزاقهم . ولما اعجزه ذلك من طرق الحلال اضطر الى ضبط الناس واخذ اموالهم من غير وجوهها فلم يغنه ذلك شيئاً فارتأى ان يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع اصحاب الاملاك فبطل لذلك اكثر الدواوين وزالت أيدي العمال . وكانت البلاد قد خربت للاسباب التي قدمناها فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الاتباع القرى الخربة فزادت خراباً فردوها وطلبوا غيرها وأهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطعين في تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد اكثر من اعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم في الاقطاع فحسدهم الديلم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما [١]

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها وانغمس الملك في الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه تحول النفوذ الى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد وأصبح الامر والنهي في أيديهم . فيستأثرون بالاموال لانفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويدخرون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك الا في الدولة المطلقة التي ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء او الكتاب أو الحجاب في عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ وخصوصاً في مثل الدولة العباسية لان وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم الا بها ولم يزه تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة النافذة

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٨

والسيف القاطع حتى في ابان تمدنها — اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في ايام الرشيد وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم حتى كان يحتاج الرشيد الى اليسير من المال فلا يقدر عليه [١] فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد [٢] نكبهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم اليه الامور وفوض اليه الدواوين وانشغل المهدي عنه باللهو وسماع الاغاني فعظم ذلك على الناس وخصوصاً العرب فهجوا يعقوب ومن ذلك قول بشار بن برد

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خلافة الله بين الناي والعود [٣]

ووشى بعض الناس الى المهدي بذلك فاستدعاه وقبض عليه وسجنه وظل في سجنه أعواماً طوالاً

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن اكثم القاضي اذ عهد اليه بتدبير مملكته واكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة [٤] ثم لم يكن راضياً عنه ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلاً « لا تتخذن وزيراً تلقي اليه شيئاً فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته » [٥] . وكان العرب يكرهون الوزراء خصوصاً لانهم في الغالب من الفرس وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة — قال اعرابي يصف وزيراً

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبناً وبخلاً وشيمة تخبر عنه انه لوزير [٦]

على ان الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضناً ببيت مال المسلمين أن يذهب في الاسراف لا طمعاً به لانفسهم كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات اذ اعجبه صوت غنته جارية اسمها علم فامر لصاحبها بخمسة آلاف دينار فمطل ابن الزيات في دفعها فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعفي ذلك المال فدفع اليه ١٠٠٠٠ دينار [٧]

(١) المسعودي ٢٠١ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٣
(٣) الفخري ١٦٦ (٤) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ (٥) الطبري ١١٣٩ ج ٣
(٦) الطبري ١٠٨٨ ج ٣ (٧) ابن الاثير ١٣ ج ٧

وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستئثاراً بالمال بزيادة ضعف الخلفاء حتى صارت معظم الاموال اليهم

(الوزراء) : بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال في أيام الزهو كأن الاموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس وصارت الوزارة مطمح انظار اهل المطامع يبذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها . على انها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند [١] ولكن الغالب ان تبذل الاموال في سبيل الحصول عليها اما رأساً الى الخليفة كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي في اوائل القرن الرابع للهجرة وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بامر الله بمبلغ ٣٠٠٠٠ دينار [٢] او بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال . وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في اثناء وزارتهم اضعاف ما بذلوه بما تصل اليه ايديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء ان الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة واخذ من كل واحد رشوة فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق فقالوا كيف نصنع فقال احدهم ينبغي ان اردتم النصفة ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لانه لم يأت بعده احد فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الذي جاء في الاخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم في عدة اعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزيرٌ لا يمل من الرقاعة ... يولي ثم يعزل بعد ساعة
ويدني من تعجل منه مال ... ويبعد من توسل بالشفاعة
اذا أهل الرشى صاروا اليه ... فاحظى القوم أوفرهم بضاعة [٣]

وكانت الاموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم

على أن بعضهم وهو نادر لم يكن يقبل الرشوة ولايعمل الا بالحق مثل عبيدالله

---

(١) ابن الاثير ٨٣ و٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩
(٢) الفخري ٢٥٣ و٢٦٦ (٣) الفخري ٢٤١

ابن يحي بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً — ذكر الفخري ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سفطاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر «لا والله لا أقبلها ولا اثقل عليه بذلك» ثم فتح الاسفاط وأخذ منها منديلاً وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر (١)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علي بن عيسى وزير المقتدر وهو صاحب جريدة الخراج التي نشرناها صفحة ١٠٧ من هذا الجزء . ولا يخلو ان يكون غيرهم قد اخلص الخدمة ولكن يقال بالاجمال ان الوزراء في عصر التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعاً با ختزان الاموال . فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات الاولى سنة ٢٩٦ هـ بقي فيها ثلاث سنين فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧٠٠٠٠٠٠ دينار اخذت كلها مصادرة . ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الاخيرتين نحو ثلاث سنوات فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار وضياع يستغل منها كل سنة ٢٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه . وكان اذا ولي الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لانه ما كان يشرب أحد كائناً من كان في داره في الفصول الثلاثة الا الماء المثلوج ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة تقية . وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخلها واحتاج الى شيء منه اخذه (٣) وكان يطلق لاصحاب الحديث عشرين الف درهم وللشعراء عشرين الف درهم ولاصحاب الادب ٢٠٠٠٠ درهم وللفقهاء ٢٠٠٠٠ درهم وللصوفية ٢٠٠٠٠ (٤) وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من اهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما

(١) الفخري ٢١٦ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ج ١
(٣) الفخري ٢٤٠ (٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٨

بين ذلك[١] فغطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله وقطع ألسنة الشعراء وكسر أقلام المؤرخين

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا اموالاً طائلة وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة . لان الوزراء كانوا يجمعون الاموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق أو في مصر أو الاندلس . فقد خلف الماوداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج وقد وهب واعطى وافضل وحج ٢٧ حجة انفق في كل منها ١٥٠٠٠٠ دينار[٢] . ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة املاكه اقطاع في الشام دخله ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة وخلف املاكاً وضياعاً وقياسر ورباعاً وخيلاً وبغالا ونوقاً وغير ذلك ما قيمته ٤٠٠٠٠٠٠ دينار غير ما انفقه في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية[٣] وخلف الافضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار عيناً[٤] و ٢٥٠ أردب دراهم نقد مصر و ٧٥٠٠٠ ثوب ديباج اطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠ دينار ومئة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مئة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان ايما أحب لبسه و ٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد مالا يحصيه عدٌّ[٥]

وقس على ذلك احوال الوزراء في الاندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة فقد أوردها ابن خلدون والمقري وفصلها هذا الاخير تفصيلاً حسناً في ثلاث صفحات كبيرة[٦]

---

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ (٢) المقريزي ١٥٥ ج ٢ (٣) المقريزي ٦ ج ٢

(٤) وهو في الأصل ستمائة الف الف دينار ولا بد من خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمئة سنة فالارجح ان يكون المراد ستين الف الف دينار كما قلنا . ويستبعد ان يكون المراد دراهم بدل دنانير لان اموال مصر قلما قدرت بالدراهم (٥) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٦) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في ابان ثروتها وبعيدها فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون في استغلالها بان يقفوها على بعض المساجد بشرط ان يستولي ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا انفسهم من خراجها أو عشورها [١]

أما الابواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الاموال بها فكثيرة من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه . ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ما شاؤا بغير حساب ناهيك بما كانوا يعدون اليه ايديهم من أموال الخراج الواردة الى الديوان وقد تقدم ان طرق دفاتر تلك الايام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره

ومن أبواب الكسب أيضاً ان بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم الى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناساً يشترون توقيعات ارزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة [٢] وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضاً في رواتب الفقهاء وارباب البيوت فكأنهم كانوا يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين فضلاً عن اتجارهم بالارزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً أو خراجاً على سبيل الرشوة اوالاقتسام وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم واغضاء الخلفاء عنهم [٣] وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم ايضاً تنقيص عيار النقود فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالاً طائلاً [٤]

تلك كانت حال الوزارة وفي ايديهم الحل والعقد ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الاتراك واستبدادهم في الخلفاء ومطالبتهم بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلاً الى ذلك الا مطالبة الوزراء فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو ما يعبرون عنه بالمصادرة . وكانت المصادرة رائجة في عصر التقهقر اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل او بهما جميعاً

(١) Porters's Const. Hist. of Turkey, Ms.

(٢) ابن الاثير ٨٤ ج ٨ (٣) الطبري ٧٠٣ ج ٣ . (٤) ابن الاثير ١٤٩ ج ٨

(المصادرة) : هي قديمة في الاسلام تتصل بعصر الراشدين وأول من صودر العمال . فكانوا اذا اكتسبوا مالاً من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال — كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين [١] وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة . فلما أفضت الامور الى بني أمية وكان ماكان من استبداد عمالهم وطمعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في اواخر الدولة لا يعزلون عاملاً عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما تصل اليه أيديهم من أمواله وكانوا يسمون ذلك « استخراجاً »

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال في أوائل الدولة من أخوتهم وأعمامهم ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم فجنح العمال الى الطمع والعنف في استخراج الاموال حتى في أيام المنصور فكان لا يعزل عاملاً الا قبض ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » [٢] وتكاثر تعدي العمال في أيام المهدي (سنة ١٥٨ — ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر في المظالم — وما هي الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالمأمون الى المهتدي في أواسط القرن الثالث

وممن نبه الخلفاء الى مظالم العمال الوزراء لأنهم كانوا يباشرون الاعمال عن الخلفاء وخصوصاً البرامكة فكانوا اذا استشارهم الخليفة في ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من هذا القبيل — استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد في تولية خراسان علي بن عيسى بن ماهان فاشار عليه أن لا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص علي اليها ظلم الناس وجمع مالاً كثيراً ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد أعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد « يا أبا علي هذا الذي أشرت علينا ألا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان في خلافك البركة » فقال « يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك انا وان كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي فاني أحب أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته اثقب وعلمه

(١) اليعقوبي ١٨١ ج ٢ والبلاذري ٨٣ و٣٨٥ (٢) الطبري ٤١٥ ج ٣

اكثر من علمي ... ان لم يكن وراء ذلك ما يكره ... ان هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف واخذ اكثرها ظلماً وتعدياً . ولو أمرني أمير المؤمنين لاتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد « وكيف ذلك » قال « قد ساومنا عوناً على السفط الذي جاء به من الجوهر فاعطيناه به ٧٠٠٠٠٠٠ فابى أن يبيعه فابعثُ اليه الساعة بحاجبي يأمره أن يرده الينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاء به جحدناه وربحنا ٧٠٠٠٠٠٠ ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك » [1] وفي كلام يحيي دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب

وقد رأيت أن الطمع تطرق الى العمال حتى في أيام الزهو العباسي ولكن البرامكة أخلصوا المشورة فغلوا أيدي العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان في من جاء بعدهم من الوزراء المخلص وغير المخلص فاطلقت أيدي العمال وأحرزوا الاموال لانفسهم وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم حتى استفحل أمرهم واكتنزوا الاموال الطائلة

(العمال) : وغنى العمال ميسور في تلك الاعصر بالنظر الى استقلالهم في ادارتهم وشؤونهم وخصوصاً عمل الاستيلاء المفوضين في كل شيء . وأبواب الكسب عندهم كثيرة : منها ان العامل اذا جاء عمله فاول شيء يتوقعه أن يحمل اليه الناس الهدايا وفيها الدواب والجواري والاموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً [2] وقد يترك ذلك في مقابل ما يقدمه العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة أو الوزير او القهرمانة أو الكاتب أو الحاجب أو غيرهم من حاشية الخلفاء [3] على أنهم كانوا يكتسبون من مصادر أخرى كالاتجار باصناف البضائع والاخشاب وغيرها [4] ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم الى المال في ارضاء الوزراء او لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن أوسع أبواب الضرائب كسباً لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسي ان ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السلطان [5] وكانوا يأخذون على حمل الحنطة هناك نصف دينار

(١) الطبري ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٥١ ج ٦ (٣) Ein. Abb· 80
(٤) المقريزي ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١ (٥) المقدسي ١٠٤

ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل على بناء بيت أو جسر أو على حفر ترعة أو نهر الف دينار مثلاً ويطالب بعشرة آلاف أو مئة الف وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين الف دينار [١] فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها [٢] وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التي يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب — فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يغل كل يوم ١٠٠٠٠٠ درهم [٣] وبلغت أموال علي بن عيسى بن ماهان ٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم [٤] فلم ير الرشيد الا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة

وكان الغالب في بادىء الرأي أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ثم صاروا يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى فانه عزله واستصفى أمواله المذكورة وحملها مع خزائنه واثاثه على ١٥٠٠ جمل غير ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ [٥]

(مصادرة الوزراء) : على ان مصادرة العمال لم يطل أمرها لاستقلالهم باعمالهم بعد قليل فاصبح المطلوب منهم لبيت المال في الغالب مالاً معيناً في العام على سبيل الضمان ونحوه . وتحوَّلت الثروة المغتصبة الى الوزراء وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلاً لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم — لا يرون في ذلك جوراً ولا شدة لاعتبارهم ما في أيديهم مختلساً من حقوق بيت المال

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها ولكنها كانت في أول الامر على سبيل النكبة والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو التخلص منه لغرض آخر . ومن هذا القبيل مقتل ابي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس فبعد ان أيد دعوتهم باموال كما أيدها أبو مسلم الخراساني بسيفه وشي الى السفاح انه ينوي اخراج الدولة من ايديهم فاوعز الى ابي مسلم فقتله ثم أصاب ابا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة — ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام الرشيد والفضل بن مروان في أيام المعتصم . وفي نكبة الفضل هذا رغبة في قبض أمواله لان المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ واخذ من داره ١٠٠٠٠٠٠ دينار واثاثاً وآنية

(١) Ein. Abb. 76 (٢) للوردي ٧٨ (٣) للمسعودي ١٨٨ ج ٢
(٤) الطبري ٧١٣ ج ٣ (٥) ابن الاثير ٨١ ج ٦

قيمتها ١٠٠٠٠٠٠ دينار[١] . ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواذ على أموالهم

وبلغت المصادرة معظمها في ايام المقتدر (سنة ٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) لان الوزراء استخفوا به لصغر سنه وافضى تدبير الامور في ايامه الى امه ونسائه وخدمه . فكانت دولته تدور امورها على تدبير النساء والخدم فخربت الدنيا وخلت بيوت الاموال وخلع واعيد ثم قتل [٢] وكثر تبديل الوزراء في ايامه وكثرت مصادراتهم . وأولهم ابن الفرات وزر له ثلاث مرات وقد تقدم ذكر ما احتشده من الاموال وقد صودر فاخذت كلها منه . وخلفه الخاقاني وكان سيء السيرة كما تقدم . ثم علي بن عيسى وكان فاضلاً ورعاً حاول اصلاح الامور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة . ثم حامد بن عباس وكان قاسي القلب في استخراج الاموال . ووزر له عبيد الله بن محمد . واحمد بن عبيد الله بن الخصيب . ومحمد بن علي بن مقلة الخطاط الشهير . وسليمان بن الحسن بن مخلد . وعبيد الله بن محمد الكلوادي . والحسين بن القسم [٣] وما من وزير الا وقبض أو صودر فأخذت امواله وسجن أو قتل . وكثرت المصادرات في أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام . وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار — على انهم قدروا جملة ما انفقه من الاموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً و ٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار سوى ما انفقه في الوجوه الواجبة [٤] وقس على ذلك أحوال سائر الوزراء

فأصبحت المصادرة بتوالي الايام المرجع الرئيسي في تحصيل المال — فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . على ان الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لارزاق الجند أو لغيرها من نفقات الدولة كما تعمد دول أوربا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب أو مشروع كبير

وكان الخلفاء يعتبرون اموال أولئك الوزراء أو العمال حقاً لبيت المال قد اغتصبوه فاسترجاعه لا يعد جوراً أو اجحافاً . وقد نجاهم ذلك من اثقال الدين الاهلي الذي تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم فيذهب نحو ربع دخلها أو ثلثه في وفائه

(١) ابن خلكان ٤١٥ ج ١ (٢) الفخري ٢٣٦ (٣) الفخري ٢٣٩ — ٢٤٩ (٤) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

أو استهلاكه وتضطر الى استنباط الضرائب من أجل ذلك حتى اصبحت تلك الدول وخصوصاً انكلترا تكلف الناس جعلاً على كل عمل يرجون به كسباً

(الكتاب) : وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالهم ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً. وقد كانوا يطمعون بتلك الاموال في أيام بني أمية فما بعدها . ولكنهم لم يشع امرهم ويخشى شرهم الا في عصر التقهقر العباسي . فامر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزامهم مالاً كثيراً استخرجه منهم بالعنف [1] وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ [2] . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت المادراني بمصر [3]

ولم يكن الغنى خاصاً بكتاب الدواوين بل كان يتناول كل كاتب من كتاب اهل الخلفاء وغيرهم . وكانت اكثر اموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء وهجاهم الشعراء كما هجوا هؤلاء — من ذلك قول بعضهم وهو يمدح احد الامراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة :

هو ما علمت من الامير فما الذي تزداد منه وفيه لا يرتاب
لا تتقي الاجناد في ايامه فقراً ولا يرجو الغنى الكتاب

وقال ابن حيبات الشاعر الكوفي يهجو الوزير والكاتب معاً :

ونجا خالد بن برمك منها اذ دعوه من بعدها بالامير
اسوأ العالمين حالاً لديهم من تسمى بكاتب أو وزير [4]

وكان من ابواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال أو سواهم كما فعل احمد بن ابي خالد الاحول كاتب المأمون في توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان وقد شرط له على نجاحه في ذلك ٣٠٠٠٠٠٠ درهم [5] وكان كتاب الدواوين في الولايات يشاركون العمال في ما يأتيهم من الهدايا أو من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف [6]

(الحجاب) : وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاة الامر وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بابواب الخلفاء فانهم من

---

(١) الطبري ١٣٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٨٥ ج ٧ (٣) المقريزي ٣٣١ ج ١
(٤) الفخري ١٥٨ (٥) اليعقوبي ٥٥٤ ج ٢ (٦) المقريزي ٩٩ ج ١

اكثر الناس دالة عليهم فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة لاكتساب الاموال من تقديم الداخلين أو تأخيرهم والاذن لهم أو منعهم فكانوا يرتشون للتعجيل في الاذن بالدخول على الخلفاء وكان ذلك شأنهم حتى في عصر الراشدين — قال المغيرة ابن شعبة « ربما عرق الدرهم في يدي ارفعه ليسهل اذني على عمر » [1] وكثيراً ما كانوا يتوسطون في تولية المناصب بالرشوة كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب ابن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠٠٠٠ دينار [2] ويقال نحو ذلك في كل من يتوفق الى دالة على الخليفة أو الامير ولو كان خادماً

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم ان الدولة العباسية لما غلب الجند على امرها واستبد قواد الاتراك بها تحولت ثروتها من بيت مالها الى أيدي رجالها ممن ينوبون عن الخليفة أو يتوسطون بينه وبين الرعايا كالعمال والوزراء والكتاب والحجاب ونحوهم . واصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتصاب أموال أولئك الموظفين فكانوا كالذي يغتذي بأكل لحمه فآل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد ان بلغت غاية الضعف

وقد يتبادر الى الاذهان ان لثقل الضرائب دخلا كبيراً في سقوط الدولة العباسية وقد رأيت ان الضرائب كانت ثقيلة في عصر الزهو العباسي — عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلاً . بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب — ليس لان تخفيض الضرائب يسوء الناس ولكن تخفيضها في تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة أصحاب المطامع من رجال الدولة وكانت الاحوال قد اختلت بفساد النيات للاسباب التي ذكرناها فزال الامن واختل النظام العام فتقاعد الناس عن العمل وقلت وارداتهم وعجزوا عن اشباع مطامع رجال الدولة . فعمد هؤلاء الى العنف في استخراج الاموال فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق في الناس حتى سئموا الحياة في دولة لا يؤمنون فيها على ارواحهم ولا اموالهم

(١) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٥ ج ٧ (٢) الفخري ١٦٦

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انكلترا من أقرب الدول الى الخراب لما فيها من اصناف الضرائب التي لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لانها فضلاً عن ضرائبها على المحصولات والواردات على اختلاف اصنافها تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلاً على اية مهنة يريد الناس معاطاتها حتى المحاماة والطب في مقابل الاذن لهم في الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقيل يختلف في من ينال أية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيهاً الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيادلة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ وعلى البنوك وأوراقها وعقودها وعلى الزواج والطلاق وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم أموال كثيرة

وأما ضرائب الايراد عند الانكليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء . فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها . والدولة الانكليزية كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصاً على الايراد واكثر ما تكون حاجتها الى المال في حال الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ في اثناء حرب الترانسفال فقد قدرت دخلها لذلك العام ٠٠٠ ٠٠٠ ١١٧ جنيه وخرجها ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥٤ والفرق بينهما ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٧ سددت معظمه بزيادة الضرائب وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أي نحو ٣½ في المئة فجعلتها شلينا في كل جنيه أي خمسة في المئة . فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٩ جنيه وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت قيمتها ٠٠٠ ٧٥٢ ١ جنيه وضريبة على سائر الخمور قيمتها ٠٠٠ ٠١٥ ١ جنيه وعلى التبغ ٠٠٠ ١٠٠ ١ وعلى الشاي ٠٠٠ ٨٠٠ ١ جنيه وغير ذلك . فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات فخفضت ضريبة الايراد اربعة بنسات أي انها ارجعتها الى ما كانت عليه فقلت حصة الحكومة من الايراد ٠٠٠ ٥٠٠ ٨ جنيه وخفضت أيضاً ضرائب القمح وغيره

وجملة القول ان انكلترا مع كثرة ضرائبها وما اثقل كاهلها من الديون فانها تعد من اثبت الدول قدماً وأوفرهن ثروة . فتخفيض الضرائب لاشك انه رحمة للناس ولكن زيادتها لا تدعو الى الخراب وانما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » فانه يقوض اركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدي عن العمل فيقعد الزارع عن

زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته — ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ولذلك قالوا « العدل أساس الملك »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للاجناد الغرباء يحملون اموالها الى بلادهم وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال وامسى الخليفة لا سلطان له حتى على قصره وبين غلمانه وجواريه تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية لان الجباية منهم فطالبوهم بها بدون ان يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت. اما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية والمبادىء الاقتصادية فلا يطالب احد من الناس الا بما يقتنع هو انه حق صريح والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة — وسنعود الى هذا البحث في بعض الاجزاء التالية

ثروة المملكة العباسية

أي البلاد واهلها

فرغنا من الكلام في ثروة الدولة العباسية ورجالها وبقي علينا النظر في ثروة المملكة وهي البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين المدن والقرى :

(المدن) : كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملاً بقاعدة التمدن في تلك الايام وهي ان تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاة الامر أو من يلوذ بهم من الخليفة الى اهله فأهل بلاطه فعماله ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن وخصوصاً العواصم ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها ولا تكاد تجد أثراً من آثار ذلك التمدن في غير المدن

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والجوهرات والاقمشة . وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون

والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة أو أمراؤه أو رجال دولته

ويمثل طبقات الناس في تلك الايام قول الفضل بن يحيى « الناس اربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعلية انهضهم اليسار وأوساط ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء لكع ولكاع وربيطة اتضاع هم أحدهم طعمه ونومه » (١)

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة وعلة كثرة جبايتها لاعتباره ان الدولة أو السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران قال : « فاذا احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلة نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج. فان الدولة كما قلنا هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها واصلها ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشد منه » اﻫ

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من الملوك وهم الاصل ثم رجال الدولة وانما يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم . ثم الاغنياء واخيراً الاوساط وهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء اولئك . وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية في هذا العصر عصر الحرية الشخصية فالناس فيه مستقلون بأعمالهم كل منهم يعد نفسه عضواً من اعضاء ذلك المجتمع لا يستغنى عنه سواء كان صانعاً أو كاتباً أو تاجراً أو موظفاً

أما في العصر العباسي فقد كان اهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتحوم آمالهم حولهم — يلتقطون مايجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون مما يصل اليهم من أموال الجباية فاذا كثرت أكثروا واذا قلت أقلوا . والجباية من الخراج

(١) ابن الفقيه ١

والخراج على الارضين والارضون انما يعمل بها الفلاحون وهي القرى. فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين — والفلاح اساس الثروة في كل العصور وخصوصاً في البلاد الزراعية. وهو في الغالب اقل الناس حظاً منها وخصوصاً في عهد التمدن القديم أو ما نسج على منواله اذ كانت الثروة والقوة في ايدي فئة الحكام أو من ينوب عنهم او ينتمي اليهم ويبقى سائر الناس اعواناً او اتباعاً او خدماً او عبيداً. يشتغلون اما بالصناعة لاصطناع ما قد يحتاج اليه اولئك من اصناف الابنية والالبسة والاثاث والجوهرات او لخدمتهم في قصورهم بالطبابة او الكتابة او لتمتيع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف أو لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما. واما للفلاحة في الارض واستغلالها والفلاحون هم الفئة الكبرى من الناس في كل زمان. وسنفصل ذلك في الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب

فالثروة في المدن تابعة لثروة الحكومة أو رجالها للاسباب التي قدمناها. فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود وبيت ماله حافلاً بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والالوف كان تجار بغداد في نعمة وثروة وخصوصاً باعة الجوهرات والرياش لانهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ. فقد رأيت في بعض ما تقدم ان جوهرياً بالكرخ في بغداد ساومه يحيي البرمكي على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبعه[1] وهو جزء مما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه. وهناك جوهري آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما اخذوه من يده من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار[2] وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر. بلغ خراج املاكه ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة[3]. وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها. فقد كان في اصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة احدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره انه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم. ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٠٠٠٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه[4] وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة

(١) الطبري ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٣٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٢٠ ج ٩
(٤) الاصطخري ١٤٢

البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها [١] . ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها ٣٠٠٠٠ دينار [٢] وأوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١٠٠٠٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته [٣] وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم أو خدمهم في بلاطهم في ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالاً طائلة حتى المغنين والشعراء . فقد توفى ابراهيم الموصلي مغني الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم [٤] وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوي ٩٠٠٠٠٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود (صفحة ١٤١)

واعتبر ذلك في سائر البلاد والاحوال فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء أو من ينتمي اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولي الامر الا نادراً

(القرى) : أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الاصليين ويسمونهم « أهل الخراج » فهؤلاء يعملون بالاجرة او شركاء لاصحاب الاملاك من الخلفاء أو الامراء او من ينتمي اليهم من الاعيان خصوصاً الدهاقين في العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام

فلما كان الاسلام تقربوا من الحكومة باموالهم [٥] ونفوذهم في اهل بلادهم ويندر ان يكون للفلاحين ملك خاص بهم لاسباب تقدم بيانها

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجري مجراهم وكانوا يقتنعون بالحصول على مايقوم باود حياتهم ويغلب فيهم الفقر المدقع وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره فكان اهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئات وآلافاً واهل القرى في فقر مدقع لو رأى احدهم الدينار لسجد له وقبله مثنى وثلاثاً . ولو دفعت اليه عشرة دنانير أو عشرين لاصابه خبل أو مات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون امير مصر في اواسط القرن الثالث للهجرة وهو مشهور بكرمه وبذخه عما انشأه من القصور والغياض والاسطبلات . وكان ينفق كل شهر الف دينار على

---

(١) الاصطخري ١٥٤ (٢) ابن حوقل ١٩٨ (٣) ابن حوقل ٢٠٧
(٤) سير الملوك ١١٣ (٥) ابن الاثير ١٠١ ج ٥

الفقراء وهو الذي جاءه وكيله يوماً فقال « اني تأتيني المرأة وعليها الازار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني فاعطيها » فقال له « من مد يده اليك فاعطه » [١] ومع ذلك فان هذا الامير نفسه ركب في غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط فاصاب بشاطىء النيل صياداً عليه خلق لا يواريه منه شيء ومعه صبيّ في مثل حاله وقد القى الشبكة في البحر فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال يانسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً فدفعها اليه ولحق ابن طولون. فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له الغلام « هذا (واشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً » فقال « فتشه يانسيم » فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فحرض الصبي ان يأخذها فأبى وقال « هذه قتلت أبي وان اخذتها قتلتني » فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون لها غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه من اصحاب الجرايات وقال « انا قتلت اباه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه » [٢]

فاذا كان هذا حال رجل من اهل ضواحي العاصمة فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم. وهي غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديدة في العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ومنها ما لم يزل عامراً الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ومنها ما انقرض وعفت آثارها كالفسطاط والزهراء . وسنذكر اشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها في ابان التمدن الاسلامي تتمة لموضوع هذا الجزء .

(١) ابن خلكان ٥٥ ج ١ (٢) المقريزي ١٢٣ ج ٢

ولكننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية في ما حمل العرب أو المسلمون على انشاء تلك المدن

كان المسلمون في صدر الاسلام عرباً اهل خيام وماشية وخيل يكرهون الاقامة ضمن الاسوار وينفرون من الانحصار في المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار في العراق والشام ومصر كانوا في بادىء الرأي اذا ساروا الى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم فاذا فتحوا بلداً اقاموا في ضواحيه بخيامهم واخبيتهم وهو معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الامصار ان لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه حتى اذا اراد ان يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط وسعد بن ابي وقاص في الكوفة[١] والبصرة وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تذكاراً لفتوحهم أو تحصناً بها من اعدائهم — كما فعل المنصور ببغداد فانه بناها حصناً له وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة . وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها وابتعاداً عن الغوغاء مثل سامرا والمتوكلية والزهراء وغيرها مما يطول بنا ايراده فلنأت الى وصف اشهر المدن الاسلامية في ابان ثروتها

كثيراً ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية كما يصف السياح اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن أو مساحتها الا نادراً . وانما كان همهم تعداد ما في تلك المدن من الجوامع والحمامات والغالب أن يبالغوا في ذلك الى ما يتجاوز طور التصديق كما سترى . واليك وصف أشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها

البصرة

هي من أقدم المدن التي بناها المسلمون ولا تزال باقية الى الان . مصّرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة[٢] وقد اتخذها العرب في بادىء الرأي

(١) الجزء الاول ٦٥ (طبعة ثانية) (٢) ابن الفقيه ١٨٨

معسكراً في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينهما نهر . وبنوها أولاً بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن باذن عمر كما سيأتي في الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل لكل قبيلة خط وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعاً وهو مربدها وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم وتلاصقوا بالمنازل [1] ونظراً لموقعها التجاري فرضة للعراق ووسطاً بين الشام وفارس أسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لامارة العراق في أيام بني أمية . فعمرت البصرة في أيامهم واتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها في امارة خالد بن عبد الله (القسري) فرسخين في فرسخين أي ٣٦ ميلاً مربعاً في أرض منبسطة لا جبال فيها وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم

وكثرت ثروة البصرة في أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها وتجاراتهم تمتد شرقاً الى الهند والصين وغرباً الى أقصى بلاد المغرب وجنوباً الى الحبشة . وكانت السفن ترسو في ميناها وتحمل أصناف التجارات من الاقمشة والاطياب وغيرها وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للاتجار أو الاقامة فابتنوا فيها القصور والحدائق وانشأوا الميادين والبرك — قال ابن حوقل « وهي موصوفة بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والميادين العجيبة والفواكه البديعة والبرك الفسيحة لا تخلو من المتنزهين ولا تعرى من المتطرقين منحدرين ومصعدين . . »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية . وقد ذكرنا في مكان آخر مقدار ماكانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠٠٠٠ دينار في العام . فقس عليه التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير

واشتهر اهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات حتى ضرب المثل في ذلك فقالوا « وابعد الناس نجعة في الكسب بصريٌّ وخوزيٌّ ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الاقصى (في الغرب) فلا بدَّ من ان يرى بها بصرياً أو خوزياً (من اهل خوزستان) أو حيرياً (من اهل الحيرة) » [2] وشأنهم في ذلك شأن السوريين اليوم أوهو دأبهم من عهد الفينيقيين

(١) الماوردي ١٧١ (٢) ابن الفقيه ١٩١

وقد نقلنا في الصفحة ١٠٠ من الجزء الاول من هذا الكتاب (طبعة ثانية) ما قاله الاصطخري عن سعة مدينة البصرة وعدد أنهارها على ايام بلال بن ابي بردة (سنة ١١٨هـ)[١] وانها زادت على ١٢٠٠٠٠ نهر تجري بها الزوارق وان الاصطخري نفسه شك في صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه . فذهب بنفسه لمشاهدة المكان في القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال « وقد كنت انكر ما ذكر من هذه الأنهار في ايام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الانهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها فجوزتُ ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » [٢] وقال نفس هذا القول ابن حوقل في عرض كلامه عن البصرة[٣].
ومع ذلك ما زلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا عالماً دقيق الملاحظة اقام في البصرة أعواماً طوالاً وخبر ارضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة في تلك الايام وحفر الانهار وامكان اشتباكها بحيث تتحول الى مجار قصيرة هم يسمون كلاً منها نهراً — ويؤيد ذلك أنهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التي ذكرنا ان مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً وانما يضمون اليها ما يتبعها من المغارس الى عباداذن عند بحر فارس مع ما كانت عليه من الخصب وكثرة الغرس — قال ابن حوقل والاصطخري « ولها نخيل متصلة من عبدسي الى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً متصلة لا يكون الانسان منها بمكان الا وهو في نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » — فاعتبر هذه المسافة طولاً في مثل نصفها عرضاً على الاقل أي ١٥٠ ميلاً في ٧٥ وذلك ١١٢٥٠ ميلاً مربعاً فيعقل أن يكون في الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله اعلم

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة اشهر بناها سعد بن ابي وقاص . ويقال في سبب بنائها ان سعداً بعد ان فتح العراق وتغلب على الفرس نزل في عاصمتهم المدائن ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة وفداً يخبره بذلك الفتح . فلما وصل الوفد الى عمر رأى ألوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدل فسألهم عن سبب

(١) ابن الاثير ٩٣ ج ٥ (٢) الاصطخري ٨٠ (٣) ابن حوقل ١٥٩

ذلك فقالوا وخومة البلاد غيرتنا . فامرهم أن يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين لان العرب لا يوافقهم من البلاد الا ما يوافق ابلهم وكتب الى سعد « ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولاجسر »[١] ففعل سعد ذلك فاختاروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الحيرة وبنوها اولاً بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فاحرقت فاستأذنوا عمر في البناء باللبن فاجابهم الى ذلك على شرط أن لا يزيد أحدهم على ثلاثة ابيات ولا يطاولوها . وكان للكوفة شأن كبيرة عند الشيعة لان الامام علي جعلها عاصمة ملكه الى ان قتل

الفسطاط

هي اول مدن المسلمين في القطر المصري بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة في ما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بقاياها جامع عمرو والاطلال والخرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكراً للعرب لما جاؤا لفتح حصن بابل وهو المعروف اليوم بدير النصارى أو دير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه عزموا على الاسكندرية لفتحها فامر عمرو بنزع فسطاطه (أي خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فاخبروا عمراً بذلك فقال « لقد تحرم بنا متحرم » فامر بالفسطاط فأقر كما كان واوصى به من بقي هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره بالسكنى فيها . فسأل عمر الرسول «هل يحول بيني وبين المسلمين ماء» قال « نعم ياامير المؤمنين اذاجرى النيل » فكتب الى عمرو « اني لااحب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً فتى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت »[٢] فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل . فلما بلغوا فسطاط الامير رأوه لا يزال منصوباً وفيه الطيور فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً واقام اربعة من كبار

(١) ابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ (٢) المقريزي ٢٩٦ ج ١

رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم .

ثم اخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال (١) وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و٨٠٠٠ شارع مسلوك و١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احنُّ الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لايحل بها القطر

وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر (٢)

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من الناس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخمارويه (٣)

واشتهر من تلك الابنية دارٌ ضرب المثل بعظمها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربع مئة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر واطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجل دخلها في اوائل القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها سبعين (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج » (٤)

وفي ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني أحدهم الف فرشة أو عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلاً من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها — وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم — قال القضاعي ان

(١) ابن حوقل ٩٦ (٢) المقريزي ٣٤٠ ج ١

(٣) المقريزي ٣٣٠ ج ١ (٤) المقريزي ٣٣٠ ج ١

قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنقهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المقريزي وغيره في كلامهم على الفسطاط

بغداد

هي عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم وقد تغير موضعها مراراً . والسبب في بنائها ان السفاح لما بويع بالخلافة واكثر أنصاره في العراق وفارس نزل الكوفة ومعه أخوه المنصور . ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماها الهاشمية اشارة الى ما يجمع بين العباسيين والعلويين واتنقلا اليها[1] وبها مات السفاح وقبره فيها . واقام المنصور في الهاشمية بضع سنين ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبني فيه مدينة حصينة فدلوه على مكان بغداد وحسنوه له فبنى فيه مدينة سماها بغداد وعرفت بمدينة المنصور

بناها في الجانب الغربي لدجلة بشكل مستدير وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه . فلما كانت أيام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي من دجلة وسمي ذلك المكان عسكر المهدي . ثم انتقل اليه الوجهاء وأهل الدولة وبنوا فيه وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور وامتدت ابنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر . ويسمى جانب بغداد الشرقي الرصافة والجانب الغربي الكرخ

وبلغت بغداد معظم عمارتها في ايام المأمون حتى امتدت ابنيتها وبساتينها على ...ة قالوا ان مساحتها ٥٣٧٥٠ جريباً منها ٢٦٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي ٢٧٠٠٠ في الجانب الغربي[2] والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ونسبته الى الفدان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ ⅓ فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٠٠٠ فدان وهو شيء كثير . ولكن يظهر أنها عبارة عن مدن متلاصقة — قال الخطيب البغدادي في تاريخه أنها أربعون مدينة وان الحمامات بلغ عددها في أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام[3] وقد أراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال « وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين الف حمام وأقل ما يكون في كل

(١) ابن خلكان ١٥١ ج ١ (٢) سير الملوك ٥٥

(٣) ابن خلدون ٢٨٧ ج ١

حمام خمسة نفر حامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل وذكر ان يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد يكون ثلاثمائة الف مسجد وتقدير ذلك أن اقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان » (١)

ولا ينطبق هذا التخريج على ما نعلمه من أحوال هـذه الايام فلا نسلم به كما هو ولـكنه يدلنا على ما بلغت اليه هـذه المدينة من العظمة في عهد ذلك التمدن العجيب . وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في أثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال«وقيل انه عبرالجسر ين من العامة في ذلك الوقت١٠٠٠٠٠ انسان في الزواريق .. » (٢) فاذا كان هـذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبر فلا نبالغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين

ناهيك عما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد — قال ابن حوقل وقد رآها في اثناء القرن الرابع للهجرة «وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات .. الخ (٣)

وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقيروان في بلاد المغرب وواسط في العراق وغيرهما في مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التي كانت عامرة قبل الاسلام وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها مثل دمشق الشام وقرطبة وغرناطة وطليطلة والاسكندرية . وسنأتي على شيء كثير من حضارة هذه المدن وغيرها في ما سنذكره من حالتها الاجتماعية في بعض الاجزاء الآتيـة ان شاء الله

﴿ تم الجزء الثاني ﴾

(١) سير الملوك ٥٥ (٢) الطبري ١٧٣٠ ج ٣ (٣) ابن حوقل ١٦٦

*

فهرست الجزء الثاني

من تاريخ التمدن الاسلامي